E-mail :unecriv@net.sy البريد الالكتروني:

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

❑❑

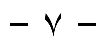
الإخراج: سنديا عثمان

عبد الباقي يوسف

غيوم من الشرق

قصص قصيرة

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق - ٢٠٠٦

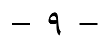


إهداء...

إلى بريهان:

رفيقة الروح

عبد الباقي



مدخل

العمّة شمس

تسري نفحات سعادة منعشة في روحي وأنا أمدّ خطوات عائدة من ساحة المطار نحو بيتي، أخطو ومع كل خطوة أزداد سعادة من صنيعي الذي قمت به طوال عشرة أيام فائتة حتى تكلل بالنجاح منذ لحظات عندما ارتفعت الطائرة حاملة العمة شمس.. تلك المرأة التي سجلت واقعة هامة في حياتي وليس بوسعي نسيانها.

العمة شمس، هذه المرأة المتقدمة في السن التي من أجلها الآن تتصوب إلي نظرات المودعين المريبة وهم يتمتمون في نفوسهم بأنني رجل أبله، وإلا ما الذي يجعل شخصاً في كل هذه السعادة وهو للتو قد ودع عزيزاً أو

حبيباً قد لن يراه ثانية، لكن هذا كله لا يهمني وأنا أمد خطواتي مع خطواتهم من جناح المودعين نحو الخارج، وأكاد أرى حتى الابتسامة تبتسم على ثغري وهم يزدادون دهشة وربما استياء.

معهم الحق، فهم لا يدركون قصة هذا الوداع، ولا يعلمون مَن هي عمة شمس الرائعة، تلك التي تحلق الآن في الفضاء تاركة في نفسي كل هذا الشعور العارم بفيضان الفرح.

منذ عشرة أيام تعرفت بالعمة حينما رأيتها لأول مرة في حياتي، كان الوقت قبيل الظهر وأنا جالس في مكتبتي القرطاسية أتدفأ على السخان الكهربائي الذي يحمل إبريق الشاي، أنظر إلى المطر الغزير الذي ينذر بطوفان ويزداد قوة وغزارة منذ ساعة متواصلة وسط أصوات الرعود والصواعق المتلاحقة التي تهز الأرض وما عليها.

بغتة وأنا أتأمل المنظر من خلف زجاج المكتبة تراءى شخص كشبح تتهرول به خطواته مسرعة نحو المكتبة، يدير قبضة الباب ويندفع إلى الداخل كتلة من ماء وكأنه لاذ بي فاراً من هيجاء.

جفلت وأنا أنتفض بسرعة من الكرسي، وإذ بملامح امرأة ترتعد خوفاً من أصوات الصواعق وترتجف من شدة

البرد القارس، امرأة عجوز تبدو قادمة لتوها من الريف، ترتدي ثياباً قروية سوداء رثة، بيد أنها ورغم علامات العمر البادية على سحنتها تبدو قوية البنية تقف على قدميها بشموخ كفتاة. كذلك استطعت أن ألمح شيئاً مضيئاً في وجهها يوحي بأنني أقف أمام شخص رحيم، ولعل هذا الذي خفف من هلعي بدخولها المباغت.

لم يكن الموقف مناسباً لأسألها شيئاً غير أن أدعوها إلى السخان لتتدفأ لعل هذه الثياب الغاصة بالمطر تجف قليلاً، لكنها مدت يدها إلى بعض الثياب التي ترتديها لتستغرق عدة دقائق حتى تخرج كيساً وتضعه أمامي قائلة: يا بني.. اعمل معروفاً، وبدت كأنها لا تريد أن تنتظر لحظة واحدة حتى تسترد شيئاً من أنفاسها المتلاحقة مردفة: أنا مستعجلة قبل أن يغلق البنك الله يخليك.

قلت بدهشة وأنا أنظر إلى الكيس: ماذا تريدين يا عمّة؟

وضعتْ عقدة الكيس في فمها وفكّته ليتراءى كيس معقود آخر، فكّته بذات الطريقة ليظهر ثالث معقود ونظراتي معلّقة بحركات هذه المرأة العجوز التي تعمل بيديها الراجفتين وأسنانها المصطكة والمطر ينزل من ثيابها.

بدت أمامي كلوحة فنية، في هذا الوقت الذي شلت الحركة من المدينة كلها، حتى السيارات اضطرت للوقوف بسبب ارتفاع المطر في الطرقات تأتي امرأة في أواخر العمر لتواصل العمل وكأنها تحمل الكرة الأرضية على ظهرها؟! أخيراً ظهر كيس أسود عتيق يبدو أنه السادس والذي يحتوي على الكنز الذي ستخرجه وأنا متلهف لرؤية الذي سيظهر بعد كل هذه العقد.

رفعت المرأة عينيها العجوزتين إلي وهي تفض ما بجوف الكيس على الطاولة قائلة: يا بني.. هذه نقود محروقة، ذهبتُ إلى البنك لأستبدلها، قالوا بأنهم لن يستبدلوها قبل أن ألصق أوراقاً بيضاء موضع الأماكن المحروقة، وأرشدوني إلى مكتبتك.

وفي لحظة نزلت كل الأوراق النقدية محروقة الأطراف على الطاولة تفوح منها رائحة الحريق، نظرتُ في الكم الهائل من الأوراق النقدية وتمتمت في نفسي: إذن مهمتي تكمن في أن ألصق كل هذه الأوراق المحروقة وأجعلها صالحة للاستبدال، وعلي أن أستعجل قليلاً لأن المصرف سوف يغلق بعد أقل من ساعة، وعند ذاك لن يكون أمام هذه المسكينة إلا أن تعود غداً مرة أخرى وتلقى ذات العذاب، لكن لدي خبرة جيدة وقد قمت بذلك كثيراً بسبب

قرب مكتبتي من المصرف المركزي: أهلاً وسهلاً يا عمّة ستكون جاهزة بعد قليل اطمئني.

عندئذ ولدى مباشرتي بالمهمة التي سوف تستغرق نحو نصف ساعة بسبب كثرة الأوراق، بدأت ملامح الاستقرار تظهر على وجه وصوت المرأة وهي تتنفس الصعداء قائلة: يجزيك الله خيراً يا بني، أرحتني من هذا الهم. وصمتت تاركة في فيها بعض كلام بدا لي أنها تنتظر استعدادي لسماع ما تبقى من كلام لم تقله.

رفعتُ نظري إليها قائلاً: اكملي يا عمة، سأسمع وأعمل؟

قالت: أنا عمتك شمس، جئت من قرية العطشانة التي تبعد خمسين كيلوا متراً عن هنا، قلت لصاحب الباص الذي أوصلني بأنني لا أملك شيئاً، ولكن عندما أعود معه في رحلة العودة سأعطيه الأجرين.

عرفت ما رمت إليه وقلت: لا عليك يا عمّة. لكنها قالت: لا يا بني، هذا حقك وتعبك، وأنا إن شاء الله ذاهبة لبيت الله.

قلت وأنا منهمك في لصق الأوراق: إن شاء الله.

قالت: هذا هو حلمي الوحيد في الحياة يا بني الذي أرجو ألا يخيبني الله في تحقيقه، كثير من أحلامي لم يتحقق، بقيت نفسي في أمنيات وحسرات فقدت الأمل في تحقيقها، لكن هذا الحلم إن تحقق سوف يعوضني بكل شيء. منذ ثلاثين سنة وأنا أحلم بأن تطأ قدماي تلك الأراضي الطاهرة، وأن تتنور عيناي برؤية الكعبة المشرفة، إن تحقيق هذا الحلم يا بني هو خير من الدنيا وما فيها. أنت تعرف بعد عشرة أيام سوف تنطلق الرحلات وعليّ أن أسجل اسمي في مكتب الحج والعمرة وأعطيهم الأجر حتى يعتمدونني للذهاب.

رغبت في أن أسألها عن سبب احتراق هذه النقود بعد أن علمت من حديثها بأنها النقود التي ستسافر بها، لكنني خشيت أن أسبب لها إحراجاً وبعد صمت ليس بالطويل وأنا على وشك الانتهاء من اللصق قالت: أعرف بأنك تريد معرفة سبب هذا الذي أصاب النقود، وأعدك يا بني عندما أنتهي من المصرف ومن التسجيل في مكتب الحج والعمرة سوف أعود لأعطيك أجرك وأقص عليك ما تود أن تعرفه.

هززتُ رأسي بالإيجاب وأنا أناولها حزمة النقود في كيس صغير جديد يحمل اسم المكتبة بعد أن غدت صالحة للاستبدال، تناولته العمّة كأنها تتناول كنزاً ثميناً كانت قد

أضاعته، وعلى الفور أخفته في بعض ثيابها وفتحت الباب لتخرج بأقصى سرعة راكضة تحت المطر صوب باب المصرف الذي يبعد نحو ثلاثمائة خطوة، وللتو تذكرت بأنها تمطر بغزارة وكنت قد نسيت تماماً أمر المطر الغزير وكذلك أمر إبريق الشاي الذي نشف وهو يغلي على السخان دون أن أنتبه إليه. وضعتُ الإبريق جانباً وجلست على الكرسي متعباً لأنني أمضيت نحو نصف ساعة واقفاً في العمل، ثم قلت: سوف أصنع الشاي الذي فاتني، منه أتدفأ ومنه أنتظر العمة ريثما تأتي لتقص علي قصة النقود المحروقة. نهضت حاملاً الإبريق نحو خزان الماء الصغير الذي يقع بالقرب من الباب وإذ بذات الكيس الذي ناولته للعمة مرمياً في زاوية الباب. تسمرت مكاني هنيهة غير مصدق ما أرى، ثم دنوت ومددت يدي إليه حتى تأكدت بأنه ذات الكيس الذي يبدو بأنه سقط منها وهي تخرج مسرعة من باب المكتبة، أو أنها لم تضعه جيداً في ثيابها فوقع على الأرض. حملت الكيس وأغلقت باب المكتبة خلفي منطلقاً بسرعة ربما أشد من سرعة العمة صوب باب المصرف الذي لابد أن تكون قد وصلته العمّة للتو. وفي أثناء الجري لا أعرف ما الذي حدث، شعرتُ بصدمة مباغتة أفقدتني الوعي. بعد مرور ستة أيام استرددت وعيي

ورأيتني في المشفى. عندئذ قيل لي بأن سيارة مسرعة اصطدمت بي على الطريق المقابل لمكتبتي وأن سائق السيارة موقوف. للتو تذكر تفاصيل ما وقع لي وتذكرت أمر العمّة شمس، تذكرت كيس النقود، وغدا كل شيء يراودني كحلم بعيد، وأيقنت بأن أحداً ما قد رأى كيس النقود على الطريق فأخذه لأنني كنت أحمله بكفي بشكل مستعجل لأعطيه للعمّة. في اليوم التالي أذن لي الطبيب بالخروج ولدى وصولي إلى البيت جاءني شخص وقال بأنه شقيق السائق الذي صدمني وهو حالياً موقوف ولن يُطلق سراحه إلا إذا أسقطت ادعائي الشخصي عليه بموجب الضبط الذي وضعته شرطة المشفى. وكانت الشرطة قد استدعت أهلي الذين تقدموا بالادعاء الشخصي نيابة عني. عدت مع الشخص بعد ساعة إلى مخفر وأسقطت ادعائي على السائق دون أن أطالبه بأي تعويض لأن تعويضي الذي أخذته هو أنني عدت إلى بيتي بسلام. ولكن بقيت الحسرة في قلبي على العمة شمس التي سوف تتألم كثيراً على ضياع حلمها. وكم رغبت فيما لو ملكت مثل هذا المبلغ لأقدمه للعمة حتى تحقق حلمها. فكرت بأن أطلب تعويضاً من السائق لأعطيه للعمة شمس حتى تحقق حلمها به لأنه هو الذي تسبب في ضياع الكيس، ولكنني تذكرت قولها لي

فـي المكتبـة أنهـا كانـت تـرفض أي صـدقة أو أي زكـاة، وكانت رغم عجزها تعمل في حياكة الملابس لأهالي القرية وأحياناً تعمل في قطاف القطن وتربي الأغنام كي تذهب إلى الحج من جهدها الخاص. عدت إلى البيت حزيناً كئيباً وأنا أعرف بأن الرحلات بدأت تنطلق نحو الحجاز وأن العمّة الآن هي أبأس مخلوق على وجه الأرض..

هل أذهب إلى القرية لأواسيها أم أستعجل لأستدين لها النقود، وإذا فعلتُ ذلك هل ستقبل. تشتت بي الأفكار دون أن أستقر على فكرة تخفف من حزني وألمي من جهة، ومن حالة الشعور بالذنب التي استبدت بي من جهة أخرى. في المساء بدأ الزوار يتوافدون للاطمئنان علي حتى الساعة العاشرة ليلاً حيث بدأت الحركة تخف في البيت ولم يبق غير أخوتي وأقربائي، عند ذاك سمعنا صوت الباب فنهض أحد أخوتي لفتحه وإذ بالسائق مع ثلاثة من أقربائه يقبلون ويعتذرون عما حدث، ثم تقدم السائق وقبلني على خدي شاكراً إسقاطي الإدعاء الشخصي عليه قائلاً بأنه سوف يتكفل جميع المصاريف التي أنفقتها في المشفى. عندها قلت بأنه لو أراد أن أكون راضياً ينسى هذا الأمر، فيكفي بأن الله قد أعادني إلى زوجتي وابنتي الوحيدة سالماً وهذا هو التعويض الأكبر على ما أصابني. ولكنني قلت له أن

يشرح لي كيف حدث ذلك فقال: كان الوقت نحو الظهر والمطر منذ أكثر من ساعة يهطل بغزارة، وكان موعد الباص الذي سيأخذ أخي وابني المريض إلى العاصمة في ذاك الوقت، فجأة وأنا في الطريق إلى وداعهما رأيتك مسرعاً كالسهم، لم يعد الوقوف ممكناً رغم أنني كنت أسير ببطء بسبب المطر وتراكم المياه في الطريق، ولكن رغم ذلك أحسست بأن الصدمة كانت قاسية عليك. وقفت مكاني وحملتك إلى السيارة، لم يكن هناك أحد في الشارع ليساعدني في تلك اللحظة، في لحظات خاطفة استطعت أن أحملك وأضعك في السيارة وأظن عندما تحركت خرج بعض جوارك من محلاتهم، كنت ما تزال تمسك كيساً بيدك، وضعت الكيس في جيبي وسلمتك للمشفى، ثم سلمت نفسي للمخفر.

نسيت كل كلمة قالها هذا الرجل وانتفضت فرحاً من الفراش: أتقول بأن الكيس عندك؟.

قال: أجل عندي واعذرني لأنني فتحته ونظرتُ فيه بعد ثلاثة أيام من وجوده معي في السجن وكان ذلك بدافع حب الاستطلاع، وعندها عرفتُ بأنك كنت ذاهباً إلى المصرف لتستبدل هذه النقود. ثم مد يده إلى معطفه الأصفر السميك وناولني الكيس: هذه هي أمانتك. نظرتُ

إلـى الكـيس غيـر مصـدق، أجـل إنـه ذات الكـيس الأبـيض الذي يحمل اسم مكتبتي، نظرتُ إليه وكأنه كان في عالم آخر وعاد إلي. ثم مددتُ يدي أتناوله من يد الرجل كما لو أنني في حلم، نظرت إليه بشوق وهو بين يدي هذه المرة، ولا أعرف لماذا نزلتْ دموع من عينَي بغزارة عجزت عن مقاومتها أو التخفيف من غزارتها. قفزتْ صورة العمة شمس إلـى مخيلتـي، العمّـة شـمس التـي كافحـت ثلاثـين سـنة مـن أجل أن تحصل على هذا الكيس الذي سوف يحقق حلمها الوحيد في هذا العالم قبل أن تودعه، وهي التـي ستخرج من هذا العالم محسورة على أحلام كثيرة لم تتحقق وفقدت الأمل فـي أن تتحقق. هذا الكيس الذي سوف يقدم لها تعويضاً عن كل أمنيات العمر الفائت الذي مضى على أمل تحقيق أحلام غدت سراباً، وكم كانت تعيسة وهي تقول بأن حلماً واحداً من حياتها لم يتحقق رغم بلوغها السبعين. وددت فيما لـو حدثت معجزة إلهية وجعلتنـي فـي هذه اللحظـة بين يدي العمّـة شمس لأناولها الكيس وأقول لها: ما زال هناك أمل لتحقيـق الحلـم الأخيـر. مضـت لحظـات غايـة فـي السـعادة لفتنـي فـي محرابها. شكرت الرجـل الـذي يبـدو بـأنني غبـت عنـه وقد تهيأ للاستئذان بالانصراف، شكرته وأنا أعلم أن كل العبارات التـي خرجت من فمـي لم تكن كافيـة للتعبيـر

عن مشاعر الشكر نحوه. وضعت الكيس تحت الوسادة التي أنام عليها، لكن أي نوم.. أي نوم يدنو من عيني وأنا أعد اللحظات حتى يطلع الضوء.. لبثتُ سهراناً حتى تسربت خيوط مضيئة من خلف غيوم داكنة إلى الغرفة ولا أصدق أن أحداً كان ينتظر هذه الخيوط باللهفة التي انتظرتها. نهضت من الفراش ونهضت زوجتي تسألني بدهشة عما أفاقني في هذا الوقت المبكر. قلت لها بأن علي الخروج حالاً وقد أتأخر في العودة. قالت: أين ستذهب وأنت ما تزال بحاجة إلى أيام من النقاهة؟!

قلت: خروجي هو نقاهتي الوحيدة. ولكنها نبهتني إلى الوقت المبكر الذي لا يصلح للذهاب إلى أي مكان. وللتو أدركت بأن جميع مكاتب الحج والعمرة مغلقة الآن. إضافة إلى أن المصرف الذي سوف أستبدل فيه النقود مغلق ولا يفتح قبل الثامنة. انتظرت إلى أن ارتفعت الشمس قليلاً وخرجت في السابعة، وصلت مكتبتي ولم تكن لي رغبة بفتحها ولو من باب إلقاء نظرة سريعة، وقفت قليلاً أمام باب المكتبة واتجهت إلى المصرف الذي بدأ موظفوه يلجون إليه للتو. كان الموظف المختص بتبديل العملات التالفة على معرفة بي، سألني عن صحتي بعد الحادث وما أن وقعت عيناه على النقود حتى قال: يا جاري أليست هذه

نقود المرأة العجوز التي أتت منذ أسبوع؟ قلت: بلى هي نقودها.

قال: المسكينة يومها أتت ومعها كيس النقود، كان غير هذا الكيس، أرشدتها إلى مكتبتك لتلصقها، وقلت لها بأنني سوف أنتظر إلى أن تأتي. عادت بعد نحو نصف ساعة تمد يدها لتُخرج الكيس، لكنها لم تجده. بحثتْ بين ثيابها المبلولة مرات عديدة ولم تجده. قلت لها رغم أن الدوام كاد ينتهي لكنني سأنتظر فقالت بأنها ستبحث في الطريق الذي أتت منه ولابد أنه قد ارتمى منها وهي متجهة إلينا. غابت نحو نصف ساعة وعادت بخفي حنين. أغلقتُ مكتبي في المصرف وخرجت معها نبحث عن الكيس وكان المطر قد خف قليلاً وتحول إلى رذاذ خفيف، جبنا الطريق جيئة وذهاباً مرات عديدة ولم نعثر له على أثر، ثم قلتُ لها: لنسأل صاحب المكتبة.. قد يعلم شيئاً. ولكننا فوجئنا ببعض جوارك من أصحاب المحلات يروون ما حدث ويقولون بأن السائق في غمضة عين حملك إلى المشفى. كان الرجل يتحدث ويعد النقود إلى أن وضع حزمة نقود جديدة في يدي قائلاً: وماذا ستفعل؟

قلت وأنا أودعه: سأبحث عن العجوز.

هرعت إلى أقرب مكتب للحج والعمرة وقلت بأنني أريد أن أحجز لشخص ذاهب إلى الحج، سألوني بعض الأسئلة، ثم طلبوا بطاقتها الشخصية لأخذ المعلومات عنها، أما بقية الإجراءات فسوف يقومون بها على جناح السرعة. مرة أخرى وقعت في حيرة من أمري، لكنني أعطيتهم اسمها الأول الذي أعرفه مع كامل الأجر وقلت: سوف تأتي مع بطاقتها الشخصية يوم السفر، قالوا لي بأنها تأخرت كثيراً عن التسجيل، وكان عليها أن تأتي قبل أسبوع على الأقل لإتمام إجراءات السفر، لكن مادامت امرأة في السبعين من عمرها سوف يفعلون ما باستطاعتهم من أجل أن تسافر بالطائرة التي سوف تقلع مساء الغد.

شعرت بأنني نزعت حملاً ثقيلاً عن كاهلي وخرجت من المكتبة، تذكرت بأنها ذكرت اسم قرية العطشانة. وعلى الفور أخذت سيارة خاصة لتوصلني إلى ذات القرية. كانت الساعة قد بلغت العاشرة عندما انطلقنا نحو تلك القرية التي تبعد خمسين كيلو متراً ولحسن حظنا أن طريق القرية كان مفروشاً بقليل من البحص ووصلنا بيسر. قرية صغيرة مؤلفة من عشرة بيوت، كل بيوتها طينية بما فيها المدرسة، ولم يكن هناك أي إشارة تدل على أن فيها ماء أو كهرباء أو هاتف. عند المدخل ركضت إلينا كلاب

القرية بشراسة وكأنها تريد أن تنهش عجلات السيارة. دخلنا القرية ووقفنا أمام أحد البيوت فتركتنا الكلاب بعد أن تقدم رجل وهو يبعدها عنا.

لدى نزولنا من السيارة وسلامنا على الرجل خرج أطفال ونسوة ورجال من البيوت يتقدمون إلينا. ودون أي سؤال باشرنا ذات الرجل: أهلاً وسهلاً بكما.. تفضلا. وأدخلنا بيته، أشعل المدفأة التي تعمل على الحطب والتي كانت مطفأة، ثم قدم إلينا إبريقاً من الشاي. وبعد قليل امتلأت الغرفة بسكان القرية فقلت بأنني أريد أن أرى العمّة شمس.

صمت الرجل صاحب البيت وظهرت على وجهه علامات الحزن. قلت: أليست العمة شمس من سكان هذه القرية؟

قال رجل آخر: نعم من سكان هذه القرية.

قلت: وأين هي؟

وصمت هو الآخر. تسرب يأس إلي وأنا أتخيل أن العمّة قد أصابها مكروه ولكن صوت رجل آخر بدد هذا اليأس وهو يقول: العمّة شمس موجودة في قرية الحصّادة. ثم خرج صاحب البيت عن صمته الطويل قائلاً: نحن نستطيع أن نوصل لها ما تريد.

قلت: لا.. أريد أن أراها للضرورة.

قال: الطريق إلى قرية الحصّادة غير سالك ومليء بالمستنقعات.. من الصعوبة أن تصلها السيارة، أما إذا كان الأمر هاماً فنرسل إليها لتأتي بالحمار.

قلت: والله الأمر هام، لكن هل المسافة بعيدة؟.

أجاب رجل آخر: إن شاء الله خلال ثلاث ساعات ستكون العمّة شمس هنا.

قال لي السائق هامساً: إن لم يكن الأمر هاماً قله وسوف يخبروها به لأن الانتظار سوف يزيد من أجري.

أجبته بذات الهمس: الأمر هام ولا يجوز إلا أن أراها.

وأشار الرجل لولده بأن يركب الحمار على جناح السرعة ويتجه إلى قرية الحصّادة ليجلب العمّة شمس قائلاً له بحزم: لا تتأخر يا جيلان، اجلب العمة بسرعة. ونهض جيلان ذو البشرة الشقراء والعينين الزرقاوين والربيع الخامس عشر مستجيباً لأمر أبيه تلحقه وصايا الأب إلى الخارج: البس معطفي يا ولدي ولف رأسك بالشماغ حتى لا تبرد واحمل معك العصا.

وبعد دقائق قليلة نهض الرجل ويبدو أن أحد الجالسين قد علم سبب نهوضه فقال: لا تكلف نفسك يا أبا جيلان،

غداء الجماعة عندي. عندئذ تسرب لي ريب بأن أبا جيلان هو أكثر سكان القرية فقراً وحاجة، ولكنه أجاب حاسماً الأمر: لا والله لن أعطيك ضيفَي، ولن يخرجا من البيت قبل أن يتغديا فيه، لدي ديك حبش وهو من نصيبهما. ووجه هذه المرة كلامه إلينا: هل تريدانه على برغل أم على ثرود؟

قلت: لا تكلف نفسك يا أبا جيلان.. يكفي استقبالك هذا لنا.

ولكنه أعاد العبارة بإصرار أشد. عندها نظرت إلى السائق ليجيب هو على السؤال فقال دون تردد: إن لم يكن من الأمر بد فليكن على برغل.

غاب الرجل بضعة دقائق عنا وعاد بعد أن أنجز ذبح الديك وسلّمه للنسوة ليقمن بمهمتهن، وبعد لحظات من دخوله طرقت إحدى النسوة الباب فنهض الرجل إلى العتبة ليتناول من يد نسائية سفرة عليها فناجين قهوة. قال أحد الجلوس: مسكينة العمّة شمس لم تذق يوماً حلواً في حياتها، تزوجت مرتين ولم يرزقها الله بأطفال. بقيت وحيدة في بيت زوجها الثاني بعد وفاته.. كانت تقول بأنها لا تريد من ربها شيئاً غير أن يرزقها قبل وفاتها بزيارة بيته الحرام، وكانت دوماً ترفض صدقات الناس وتقول بأنها تريد أن

تذهب إلى تلك الأراضي الطاهرة بتعبها وعملها وليس بتعب وعمل الآخرين. ثلاثون سنة وهي تنظر في السجادة التي اشترتها وعلقتها على حائط بيتها القبلي والتي تحمل صورة الكعبة المشرفة وتتخيل أن تتحول هذه الصورة أمام عينيها إلى حقيقة ذات يوم، كنا نزورها في البيت وكانت تبكي وهي تنظر في السجادة وتقول: لا أريد من ربي غير أن يرزقني بزيارة هذا المكان المبارك.. سأجلب لكل أهالي القرية الهدايا والذكريات من الأراضي الطاهرة، سأجلب المسابيح والقبعات والخواتم والجلابيب البيضاء وماء زمزم والتمر، لن أترك أحداً من سكان القرية إلا وأعطيه هدية من أرض الحجاز. هذه السنة قالت بأنها سوف تذهب إلى الحج وقد يسر الله لها أمرها بعد انتظار ثلاثين سنة، لكن أولاد الحرام عندما سمعوا بأمر ذهابها هجموا عليها في الليل وهددوها بالقتل إن لم تعطهم النقود التي سوف تحج بها. قالت لهم: اقتلوني ولن أعطي النقود، لأن الموت هو أهون من ذهاب حلم العمر الذي عملت من أجله ثلاثين سنة.

كانوا ثلاثة شبان ملطمين كما تقول العمّة وعندما بلغهم اليأس قالوا بأنهم سوف يحرقون البيت بما فيه لتحترق هي وتحترق النقود معها. ولم ترشدهم على المكان الذي

تخفي فيه هذه النقود، قاموا بتكميم فمها ورشوا بعض الكاز على الفراش الذي تنام عليه كما تروي، ثم امتدت النيران إلى أرجاء الغرفة وهم يقولون بأنها لو أرشدتهم إلى موضع النقود سوف يخرجونها، ولكنها أبت ذلك إلى أن تناهت أصوات رجال رأوا الدخان يتسرب من بيت العمّة فهرب الشبان الثلاثة وأقبل الرجال يخرجون العمّة تاركين البيت تأكله ألسنة النيران. لم تنم العمّة حتى الصباح وعندها هرعت إلى بيتها المحروق برفقة رجال القرية، أرشدتهم إلى موضع النقود التي كانت في علبة مغلقة، فأخرجوها وفرشوها أمام العمّة، لكن أحد الرجال قال لها بأن المصرف يستبدل النقود المحروقة والتالفة بنقود جديدة. وما إن سمعت العمّة هذا الكلام حتى جمعت النقود في كيس ونزلت إلى المدينة. أضاف رجل آخر: لكن المسكينة أضاعت النقود في المدينة وعادت يائسة، قالت بأنها ترفض أن تقيم في هذه القرية يوماً واحداً بعد أن فقدت الأمل بحلمها في الذهاب إلى الحج وعرفت بأن العمر لم يعد يمهلها لتعمل من جديد وتجمع ما يمكن أن تحقق به حلمها. قالت بأنها سوف تمضي ما تبقى من عمرها في قرية الحصادة وأوصت أن تُدفن هناك عندما تموت.

عند الظهيرة كان الغداء جاهزاً فأدخل مضيفنا بساطاً أزرقاً ومده وسط الغرفة وضع عليه سفرة البرغل واللحم إلى جانب بعض البصل اليابس والمخلل وكاسات اللبن. نهض بعض الجلوس للخروج لكن أبا جيلان أقسم بأن الجميع لابد أن يبقى ويشاركنا الغداء، تجمعنا على السفرة، وأنا أتناول الطعام بشهية قلت لأبي جيلان: كيف تصنع النسوة مثل هذا الطعام اللذيذ؟ أجاب وهو يأكل ويقول: بالصحة والعافية.. هذا طعام مطبوخ على الخشب.

لم ننته من تناول الطعام حتى تناهت أصوات أطفال تقول: جاء جيلان مع العمّة شمس.

خفق قلبي فرحاً وقال أبو جيلان: وصلت العمّة شمس. انتظرت أن تدخل بيد أن ذلك لم يحدث حتى فرغنا من الطعام وغسلنا أيادينا، عندئذ دخلت العمّة باحثة بعينيها بين الجلوس حتى وقعت علي. نهضت وأنا أصافحها فقالت: أنت صاحب المكتبة. أومأتُ رأسي بالإيجاب فجلست إلى جواري. كانت فرصة لأنظر كم أن الإنسان قابل للتغيير الهائل في أيام قليلة، كانت شاحبة للغاية، أو لأقل بدت أمامي وكأنها خرجت للتو من مقبرة، يوحي منظرها لي بأنها غابت عني سنوات وليس بضعة أيام، لقد بدت الشيخوخة عليها ضعف ما كانت بادية عليها عندما

رأيتها منذ أسبوع وهي كتلة من الحيوية تجري تحت المطر الغزير وتنتصب أمامي بلياقة بدنية، حتى وجهها كان يوحي بالحياة لأنها كانت سعيدة باستعدادات السفر لتحقيق حلم العمر رغم أنها كانت خارجة للتو من حريق. بدت امرأة لا تنتظر شيئاً، فقط تنتظر أيامها القليلة الباردة لتخرج من الحياة بدون أسف. لم تفه بحرف واحد وأنا أنتظر أن تبادر بالسؤال عن سبب حضوري إليها، وعند ذاك لم أتردد من مد يدي إلى سترتي وأخرج الكيس وأضعه أمام العمّة. صوّبت العمّة نظرة عميقة إليه ورأيت وجهها يتبدل كالسماء الغائمة التي تصحو بتسرب خيوط الشمس، الجميع صوب نظره إلى الكيس وساد سكون في الغرفة كلها رغم وجود نحو عشرة أشخاص. افتر ثغر العمة عن بسمة ثم رفعت نظرها إلي هازة رأسها بفرح ملأ وجهها. فهززت رأسي بأنه هو ذات الكيس المفقود. تسرب إلي شعور بأنها رغبت بقوة لمد يدها إليه والنظر إلى النقود للتأكد، ولم تفعل ذلك لسبب أجهله فقلت لها: إنه كيسك يا عمّة، لقد بدّلت النقود في المصرف وحجزت لك في مكتب الحج والعمرة وطائرتك سوف تقلع مساء الغد. سأذهب إلى الحج.. قالتها بنبرات مليئة بالفرح وهي تغمرني بنظراتها. قلت: ستذهبين يا عمّة غداً وأنا جئت لآخذك معي إلى المدينة حتى يستكمل

المكتب إجراءات سفرك بموجب البطاقة. دبت حيوية غريبة فيها واستأذنتنا لبعض الوقت. كانت الساعة قد شارفت على الثالثة عصراً، شربنا الشاي واستغرق غيابها عنا نحو ثلاثة أرباع الساعة حتى ظهرت مختلفة عما كانت عليه، كانت قد أمضت الوقت في الاستحمام وتغيير ثيابها بثياب جديدة يبدو أنها استعارتها من نسوة القرية، حتى الحذاء كان جديداً. صعدنا السيارة وودعنا أهالي القرية متجهين نحو مكتب الحج والعمرة الذي وصلناه مع تسرب خيوط المساء إلى الطرقات. هناك أخذوا صورة عن بطاقتها الشخصية وطلبوا صورتين شخصيتين لها جلبناهما في أقصى سرعة وبصمت العمّة على بعض الأوراق، ثم قالوا بأن كل شيء تم وأن حجزها في الطائرة التي تقلع نحو الديار المقدسة عند الساعة الثامنة مساء الغد أصبح جاهزاً، وهناك ستجد من ينتظرها ويرتب لها إجراءات الصعود إلى الطائرة.

عدنا إلى البيت وقدمت العمّة لزوجتي وابنتي فرحبا بها بحرارة، وجلسنا نتعشى ونتسامر إلى وقت متأخر من الليل احتفاء بالضيفة التي ستتجه إلى الحج. في الصباح تناولنا طعام الفطور واتجهنا نحو العاصمة التي ستنطلق منها الطائرة، في المطار نظرت العمّة إلى الطائرة قائلة: هذه هي الطائرة التي ستأخذنا إلى الحج؟

قلت: أجل يا عمّة هذه هي.

قالت: سبحان الله.. كنت منذ ساعات أركب الحمار والآن أركب الطائرة، كم هو جميل منظرها.. هذه أول مرة أرى طائرة في حياتي.. ثم أردفت: هذه أول مرة أخرج فيها من مدينتي. وصعدت العمّة الطائرة التي ارتفعت بعد قليل متجهة نحو الحجاز.

ﮋﮊ

(أ)

إيقاعات الرحلة

عندما وصلت إلى مكتب قطع التذاكر وقلت له بأنني أريد تذكرة إلى دمشق في رحلة الساعة الثانية عشرة ليلاً التي ستنطلق بعد نصف ساعة، قال قاطع التذاكر وهو يطلب هويتي الشخصية: يبدو بأنك محظوظ، بقي مقعد واحد.

ناولته بطاقتي الشخصية مع قيمة التذكرة وقلت: إذن احجزه لي، إنها الرحلة الوحيدة التي تناسبني، لأنها تصل دمشق في الثامنة صباحاً.

وضعت التذكرة في جيبي وجلست على كرسي في الكراج إلى أن دخل الباص القادم من القامشلي ليأخذ معه ركاب الحسكة في هذه الرحلة.

اندفع حشد من الركاب نحو الباص فور وقوفه جوار المكتب، ونهضت في لحظات لأنضم إلى هذا الحشد الصغير وكأننا عائلة واحدة سوف نمضي ليلة واحدة معاً في هذه الرحلة.

مددت الخطوات نحو مقعدي فرأيت شخصاً قروياً يرتدي فروة سوداء ضخمة يسبقني بلحظات ويجلس في ذات المقعد المجوز ناحية النافذة فعرفت حينها بأنه جليسي في هذا المعقد. جلست قربه وأنا ألقي عليه السلام، وألقي نظرة إليه لعل بي معرفة سابقة به، فأجاب الرجل على سلامي بشكل موجز قائلاً: وعليكم السلام يا بن أخي. إنه رجل في نحو الستين من عمره، يرتدي على رأسه شماغاً أحمر اللون. بعد هنيهات من جلوسي اندفعت إلي رائحة كريهة من الفروة الضخمة التي يرتديها، فمددتُ يدي إلى أنفي وأدرت وجهي اتقاء الرائحة، عندها صدر صوت الرجل وهو يجيب من تلقاء نفسه على سلامي للمرة الثانية: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلاً، أهلاً بك، إنها فرصة جيدة لنتعارف. قلت: أهلاً وسهلاً يا عم. فصوب الرجل نظرة عميقة إلي حتى بدا لي بأننا على معرفة سابقة دون أن أنتبه، فأدرت وجهي أبادله النظر دون أن أذكر بأنني أعرف هذا الرجل وفي لحظات سريعة أعدت استدارة وجهي وأنا أكاد أختنق من قوة الرائحة التي اندفعت إلي.

لكن لبثت أنظاره معلقة بي إلى أن انطلق الباص وتقدم المضيف يناولنا كاسات ماء فارغة، عندها بادرني الرجل بالسؤال عن اسمي، فأجبته، ويبدو بأن جوابي شجعه ليسألني عن عملي ثم عن العائلة التي أنتمي إليها، ثم عن مكان سكني، وعن سني، ووضعي العائلي، وكلما يسألني سؤالاً أجيبه دون أن أنظر إليه متحاشياً قوة الرائحة التي تفوح من فروته.

ثم قال وهو يبدي رغبته الشديدة في تدخين سيجارة ويدين القرار الذي يمنع تدخين السجائر في الحافلات العامة: أما أنا إذا سألتني عن اسمي، أقول لك أنهم يقولون لي: درباس، ولكن اسمي في الهوية عباس، وليت اسمي كان في الهوية أيضاً درباس لأنني أحب هذا الاسم أكثر من عباس، بل أن من يريد أن يستفزني في القرية يقول: يا عباس، فأنهض وأتشاجر معه لأنني أشعر بأنه أراد أن ينقص من شأني. وإذا سألتني عن عملي، أقول لك بأنني مذ فتحت عيني على الحياة وجدت نفسي بين الأبقار، كان أبي يربي الأبقار، وعندما كبرت ورثت عنه هذه المهنة التي تعلقت بها ولتعلم بأن أكثر ما يحزنني عندما أسافر وأبتعد عن رائحة أبقاري وأظنها هي أيضاً تكون حزينة عندما تفتقد رائحتي. ثم ابتسم قليلاً ومد يده إلى بعض ثيابه تحت الفروة الضخمة التي تفوح منها كل تلك الرائحة الكريهة وأخرج

كيساً بلاستيكياً أسود اللون، وبدأ يفك الكيس ليظهر فيه كم من روث الأبقار، فقلت له أن يحكم الكيس ويعيده إلى مكانه، قال وهو يعيد ربط فم الكيس: قبل أن أستلقي على الفراش لأنام في الفندق أفتح هذا الكيس وأضعه بجانب رأسي حتى أستطيع النوم. وإن اشتقت لأبقاري . ومد يده إلى إحدى جيوبه الداخلية أخرج صورة ملونة لعدة أبقار قائلاً .: أنظر إلى هذه الصورة وأضعها جوار الكيس ولا أدري بنفسي إلا وقد غرقت في نوم عميق. فنظرت إليه مرة أخرى وأنا أقاوم الرائحة التي بدت تسبب لي ألماً شديداً في الرأس بعد نحو ساعة ونصف من انطلاق الباص الذي سيمضي الليل كله إلى أن يصل دمشق، فقال وفمه يمتلئ ببسمة طفيفة: مرة واحدة سافرت وقد نسيت أن أصطحب معي هذا الكيس، أمضيت ثلاثة أيام دون أن أغفو دقيقة واحدة، كنت أبحث في الشام عن بقرة واحدة لأنظر فيها، وأبحث عن قليل من روث الأبقار لأضعه في كيس وأحمله في جيبي دون جدوى، وكأن الأبقار كلها ماتت لا سمح الله، وفجأة وضع كفه على رأسي قائلاً: أليس هذا إخلاصاً مني لأبقاري؟، أبقاري التي تقيني الحاجة، أستحلفك بالله قد وضعتُ يدي على رأسك هل أنا على خطأ أم على صواب؟ لا تصمت، قل لي، أليست هذه الأبقار هي رزقي ورزق عيالي؟ نسيتُ أن أقول لك بأن لي تسعة أولاد من زوجتي.

صمت قليلاً وهو يدين مرة أخرى القرار الذي يمنع التدخين في الحافلات، لكنه مد يده إلى إحدى جيوبه الداخلية الكثيرة مرة أخرى وأخرج علبة تبغ وضع سيجارة في فمه دون أن يشعلها ثم قال: أجل سأقول لك قبل أن أنسى فعندما عدت إلى البيت أول شيء فعلته قبل أن أدخل على عيالي اتجهت إلى الخان، جلست بين الأبقار فلحقتني أم العيال ولحقني الأولاد إلى هناك، وبعد ساعتين خرجت وقد استرددت عافيتي قليلاً ثم أمضيت ستة أيام أنام فيها في الخان بين أبقاري حتى أعوض ما فاتني من رائحة. وعاد مرة أخرى يضع كفه على رأسي قائلاً: أستحلفك بالله وقد وضعت يدي على رأسك هل أنا على خطأ بسبب حبي لأبقاري، أليست هي التي تقيني وتقي عيالي الحاجة والسؤال، قل، لا تصمت، هل أنا على خطأ. فلم أجد بداً من أن أقول: لا يا سيدي لست على خطأ، بارك الله بقوتك.

أغمضت عيني في محاولة للنوم علّي أنسى قليلاً هذا الجحيم الذي رأيتني مرغماً للبقاء فيه. راودتني أفكار عديدة مثل أن أوقف الباص وأنزل، ولكن الوقت المتأخر من الليل منعني وكذلك شدة البرد القارس ونحن في بدايات شهر شباط.

وجاءني صوته بعد لحظات صمت: هل نمت، يا رجل أنا أكبرك بثلاثين سنة ولم أنم، دعنا نتكلم إنها فرصتنا الوحيدة لنتعارف. فتحت عيني وقلت: لا، لا لستُ نائماً، قل ما تشاء، أسمعك جيداً. جاء صوته: مرة أراد أخي أن يتزوج ولم يكن لديه المهر فطلب مني أن أبيع أبقاري وأعطيه ثمنها ليتزوج، فقلت له بأنني حتى لو كنتُ على وشك الموت وعلمت أن بيع أبقاري سينقذني من الموت حتى أتعالج بثمنها، فلن أقدم على ذلك لأنني لا أتصور أن أكون في البيت بدون أبقار، وعندها سأمضي ثلاثة أيام في الخان الفارغ من الأبقار وأقضي نحبي كرباً على ذهاب أبقاري. فخاصمني أخي من يومها ولم يعد يدخل بيتي، وعاد مرة أخرى يضع يده على رأسي قائلاً: أستحلفك بالله وقد وضعت يدي على رأسك هل كنت على خطأ لأنني لم أبع أبقاري حتى يتزوج بثمنها، وإن جعت وجاع أولادي هل كان أخي سيعطينا طعاماً وإن أعطانا شهراً أو شهرين هل كان سيعطينا مدى الحياة، قل، استحلفك بالله أن تقول، وبدأت نبرات صوته تتصاعد: لا تصمت، هل كنت على خطأ، هل من حقه أن يخاصمني ولا يدخل بيتي منذ خمس سنوات وحتى الآن، ثم أنه يقول للناس بأن درباس ليس أخي ولا أعرفه وأنا بريء منه إلى يوم القيامة، قل، هل معه حق في كل هذا. فقلت وأنا أحاول أن أهدئ من روعه: لا

ليس معه حق وأنت على صواب. فهدأته هذه العبارة ثم أخذ ينفث في السيجارة الغير مشتعلة ويهدأ شيئاً فشيئاً.

وعندما وصلنا أول استراحة خطر لي أن أستبدل الباص بباص آخر، عندها وأنا أنهض للنزول أمسك درباس بيدي ونهض معي قائلاً بأن أبقى ممسكاً بيده لأنه لا يرى ليلاً بسبب مرض العمش الذي في عينيه، طلب مني أن أوصله إلى المرحاض، وقبل ذلك أشعل سيجارة لدى الخطوة الأولى للنزول من الباص وبدأ يدخن بشراهة إلى أن أدخلته إلى المرحاض، دخل وهو يوصيني ألا أتحرك لأنه سوف يبقى ولا يعرف كيف يعود إلى الباص. عند ذاك وجدتها فرصة لأسأل سائق باص كان يقف في ذات الاستراحة ويتجه إلى دمشق عن وجود مقعد شاغر، ولكن الرجل اعتذر وهو ينظر إلي نظرات مريبة بسبب رغبتي لتغيير الباص، ورأيته يتجه على الفور إلى سائق الباص الذي فيه مقعدي ويهمس إليه. بعد قليل اتجه السائق إلى الهاتف وأجرى اتصالاً، تذكرت أمر رفيقي في المرحاض وذهبت لأراه يقف بجانب باب المرحاض المفتوح يدخن بشراهة وهو يناديني، فأمسكت بيده وقدته إلى صالة الاستراحة ليشرب كأساً من الشاي. شعرنا جميعاً بتأخر انطلاق الباص عندما مضت ساعة دون أن ننطلق، فبدأنا نسأل عن السبب، قال السائق بأن عطلاً ما قد حدث، وقد

اتصل بالشركة التي سترسل له بعد قليل معلم ميكانيك ليصلح العطل. بعد قليل حضرت دورية مسلحة من الشرطة فأشار السائق إلي، أمرني أحدهم أن أرفع يدي بعد أن طلب من جميع الركاب الابتعاد، وعندها لم يتردد درباس أيضاً أن يرفع يديه معي، تقدموا وصاروا يفتشونني بدقة شديدة، وبعد ذلك فتشوا درباس ووقعوا على ذاك الكيس. قال أحدهم: هذا ما نبحث عنه يا سيدي. عندها لم يتردد درباس من أن يقول: خذوا كل شيء إلا هذا الكيس. ثم قادونا إلى الباص وهم يشيرون للركاب بالابتعاد ما أمكن، طلبوا أن أرشدهم إلى حقيبتي، وفتشوها قطعة قطعة، ثم فتشوا حقيبة درباس فوجدوا كيساً مماثلاً للذي وجدوه بحوزته فقال درباس بأنه كيس الاحتياط. قال أحدهم: نعرف جيداً بأنه كيس الاحتياط.

طلبت الدورية من السائق أن ينطلق بالركاب ويكمل الرحلة بعد أن صعدنا إلى سيارة الدورية مع أمتعتنا إلى حيث المخفر، هناك أبقونا حتى الصباح إلى أن أجروا كشفاً مخبرياً على الكيسين وقدموا لنا اعتذاراً عن سوء الفهم هذا الذي دافعه الحرص على حياة الناس، وأعادوا لنا أمتعتنا وأعادوا لدرباس الكيسين بعد أن أصر على إعادتهما إليه لأنه لا يستطيع أن يتحرك خطوة واحدة بدونهما، ثم قال رئيس الدورية بأنه أقسم على ألا نخسر شيئاً لنكمل

الرحلة فقد اتصل لحجز مقعدين وسوف يصل باص بعد قليل إلى ذات الاستراحة التي تم أخذنا منها. قال بأننا كما ركبنا معاً في ذاك الباص سوف نكمل الرحلة معاً في الباص الجديد. عندئذ تذكرت بأنني سوف أكون في مقعد واحد مع درباس فقلت: أرجو أن تتركوني وشأني، أما درباس فلا علاقة لي به، فقال درباس: إما أن نكمل معاً الرحلة أو نعود معاً إلى الحسكة. ومرة أخرى رأيتني مرغماً للجلوس في مقعد واحد مع درباس وتحمل كل تلك الرائحة الكريهة. أخذتنا سيارة المخفر إلى الاستراحة، في الطريق وقعت عيني على محل لبيع العطور، أوقفتُ السائق بجانب المحل، ابتعت علبة عطر وانطلقنا نحو الاستراحة لنجد الباص واقفاً بانتظارنا، وضعنا أمتعتنا وقبل أن نصعد أخرجتُ علبة العطر وبدأت أبخها على فروة درباس حتى فرغت. قال درباس وهو يتقزز من رائحة العطر ويلمس الكيس تحت فروته: لكن لا يهم ما دمت أحمل هذا الكيس تحت فروتي.

ꕤ



السوط

ضاقت بنا سبل المعيشة في هذه القرية لعدم هطول المطر بشكل كاف خلال ثلاث سنوات متتالية.

صحيح كنا نمضي أغلب أوقاتنا في التسلية والنوم والسمر من بيت إلى بيت ولم نكن نعمل أكثر من شهرين في السنة، عندما كنا نبذر الأرض، وعندما نحصد المحصول، لكن جيوبنا كانت منتفخة بأعلى قطع النقود، كانت بيوتنا مكتظة بالطعام والشراب والفاكهة.

أما الثياب الجديدة فكنا نشتريها لكل فصل جديد من السنة.

أرضنا الذهبية تذر علينا قطع الذهب حتى أننا لم نكن نتخيل في يوم سنحتاج إلى شيء ما دامت أراضينا الزراعية الخصبة بأيدينا.

الآن وقع ما لم نكن نتخيله، الأرض الخصبة تحتضر عطشاً ولا قطرة ماء تنزل عليها، حتى الآبار الارتوازية جفت ولم تعد تسحب من جوف الأرض أكثر من حاجة بيوتنا للشرب.

في البداية قلنا بأنها فترة مؤقتة ولا بد أن يهطل المطر، أو نتمكن من استجرار الماء من جوف الأرض لنسقي مزروعاتنا، ولكن سنوات الجفاف توالت فبدأنا ببيع ما نملك حتى لا نقضي جوعاً.

في البدء بعنا سياراتنا، أنفقنا قيمتها ثم أتينا على ذهب نسائنا، أنفقنا قيمتها ثم أتينا إلى الأغنام والأبقار التي هاجت وماجت وهي تتضور جوعاً ولا نملك شراء علف لها.

لم يبق لدينا ما يصلح للبيع، حتى ساعات أيادينا بعناها، ولحقتها آلات التسجيل، والدشات، وأجهزة الهواتف الخلوية، والسجادات العجمية، أخيراً أتينا حتى على طيور الدجاج والحمام فبعناها.

الليلة الأخيرة من ليالينا في القرية اجتمعنا، عاصم وبدر وأنا في بيتي، اتفقنا أن نلجأ إلى المدينة بحثاً عن عمل، فنحن ثلاثة شباب في أعمار متقاربة لم يتزوج أحدنا

بعد، ويمكن أن نقوم بأي عمل عضلي في المدينة ونعيل أهالينا الذين باتوا يبحثون عن طعام ولا يجدوه.

عند ساعة متأخرة من الليل أجمعنا أن نترك القرية صباحاً وننزل المدينة بحثاً عن لقمة العيش. في الصباح الباكر ركبنا الحمير التي أوصلتنا إلى الطريق العام، ومن هناك ركبنا أول باص وقف لإشاراتنا المتلاحقة لينزلنا وسط المدينة.

لم يكن أمامنا إلا أن نبحث عن غرفة بالأجرة في الأحياء الشعبية، بتنا نجوب الشوارع والأحياء حتى ساعة العصر إلى أن اهتدينا إلى غرفة طينية فيها فرش عتيق.

نظرنا إلى وجوه بعضنا البعض، ولم يكن أمامنا إلا أن نقبل بها لأنها الأنسب من ناحية الأجرة المنخفضة التي قررنا أن نتقاسمها فيما بيننا.

أمضينا ليلتنا في الغرفة حتى صباح اليوم التالي، عند ذاك خرجنا نبحث عن أعمال.

لبثنا نبحث حتى خيم الظلام، لكننا عدنا إلى الغرفة فرحين لأننا وجدنا ما نبحث عنه، كان العمل بالنسبة لنا بمثابة ولادة ثانية وانطلاقة جديدة نحو حياة جديدة نكتشفها للتو.

بدر وجد عملاً في مصبغة يأخذ الثياب المكوية إلى أصحابها في بيوتهم، وعاصم رأى عملاً في مقهى يأخذ طلبات إلى محلات مجاورة، وأنا رُزقت بعمل لدى محمل بيع سمانة بالجملة، أنقل البضاعة من داخل المحل إلى سيارات الزبائن، وأحياناً ندور بسيارة المحل نوزع البضاعة على محلات في أحياء المدينة.

بطبيعة عملي كنت أنتهي قبل بدر وعاصم في الأيام التي لا نذهب فيها إلى الأحياء، وعندها لم أجد مكاناً سوى أن أذهب إلى أحدهما بانتظار أن ينتهي هو الآخر فنتجه معاً إلى الثالث لننطلق ثلاثتنا إلى البيت.

بعد ستة شهور لاحظتُ أمراً مريباً على بدر، فعندما أذهب إليه في المصبغة لانتظره هناك ريثما ينتهي من عمله، يجلس معي قليلاً ثم يناديه صاحب المصبغة إلى الداخل حيث غرفة منعزلة وهو يقول له: ليأخذ صديقك باله من المصبغة حتى نخرج.

هنا يكمن دوري في أن أستلم الثياب من الزبائن، أو أسلمهم ثيابهم بعد أن علمني صاحب المصبغة طريقة الوصول السريع إلى الثياب بحسب الأرقام المكتوبة على الإيصالات وعلى الثياب.

فأبدأ في سماع أصوات غريبة من الداخل، مرة أردت أن أعرف مصدر هذه الأصوات التي تصدر من غرفتهما، وقلت لنفسي سأفتح الباب فجأة وأطلب من بدر سيجارة لأن علبة دخاني نفدت.

دنوت من الباب على رؤوس أصابعي، مددت يدي لأفتحه بسرعة، لكنني صُدمت بأنه مقفول من الداخل ويبدو أن الأصوات المرتفعة التي تصدر داخل الغرفة منعتهما من سماع صوت الباب، فأحنيت رأسي لأنظر من الثقب وإذ بصاحب المحل يحمل بيده سوطاً وقد تعرّق وهو يسدد ضربات شديد إلى جسد بدر العاري.

يتلقى بدر الضربات الموجعة على جسده ويصرخ بقوة هارباً من زاوية إلى أخرى وأنا أنظر إليهما من الثقب بدهشة.

لم يكن بوسعي أن أحتمل المنظر فركلت الباب عدة ركلات سريعة، ثم خرجت إلى الشارع أطلب الاستغاثة.

امتلأت المصبغة بالناس فقلت لهم أن صاحب المصبغة يعتدي على صديقي بالضرب في هذه الغرفة المغلقة.

تقدم الناس من باب الغرفة وغدوا يطرقون بشدة وهم ينادون باسم صاحب المصبغة.

بعد هنيهات انفتح شق الباب بهدوء وخرج صاحب المصبغة يلحقه بدر وقد ارتدى ثيابه وتبدو علامات الارتياح على وجهه.

جمدتُ في أرضي وأنا أنظر فيهما وفي الناس فوجّه بدر كلامه إلى الحشد قائلاً: يبدو أن صديقي من كثر قلقه علي تخيل بأن معلمي يضربني؟!

هذا الكلام الموجز جعلهم ينظرون إلى نظرات ازدراء وريبة ويخرجون، بينما اعتراني خجل شديد من معلمه وهو الذي ما إن يراني داخلاً المصبغة حتى يصافحني ويطلب من بدر أن يقدم لي شاياً، ثم يُخرج علبة دخانه ليناولني سيجارة تلو الأخرى، حتى أنه عندما لا يراني ثلاثة أيام وأكون فيها عند عاصم أراه يستقبلني بحرارة ويقبلني على خدي.

بدأت أقدم إليه عبارات الاعتذار على تصرفي، لكنه ابتسم وقال: سأسامحك من أجل عينَي بدر فقط.

بعد نحو ربع ساعة من الحادثة جاء عاصم وانطلقنا إلى الغرفة دون أن يعلم بشيء مما حدث.

مضى شهر على ذلك دون أن أجرؤ على دخول المصبغة خجلاً من ذاك الرجل، واتخذت بيني وبين نفسي قراراً ألا أدخلها ثانية، بيد أن بدر هو الذي زحزحني عن

قراري عندما قال لي بأن معلمه مستاء من مقاطعتي للمصبغة، فأنا بحضوري لا أسبب له إزعاجاً، بل أريحه لأنه عند ذاك يتمكن من دخول الغرفة مع بدر لأقم بدوره في التعامل مع الزبائن، ولم أمسك نفسي فقلت لبدر: ولكن ماذا تفعلان في الغرفة المغلقة؟. قال بدر بعد أن نظر في عينَي نظرة مريبة: نفعل شيئاً هاماً.

ثم قال بأن معلمه طلب إليه أن يعرض علي العمل في المصبغة لقاء أجر جيد لأن المصبغة تحتاج إلى عمال وبصفتي صديق بدر فأنا أولى بهذا العمل. لكنني بدون تفكير قلت بأنني سعيد في عملي ولا أتركه. في أمسية اليوم التالي وبدل أن أتجه إلى عاصم في المقهى لأنتظر هناك إلى أن يأتينا بدر، اتجهت إلى بدر في المصبغة وما إن رآني معلمه حتى أخذني في حضنه وهو يقول: لقد قاطعتنا شهراً بدون سبب، هذه آخر مرة تقاطعنا فيها. ثم أقعدني في مكانه خلف طاولة إدارة العمل وناولني كأس شاي وسيجارة، وبعد قليل نهض وهو يقول لي: خذ بالك من العمل. دخل ذات الغرفة ولحقه بدر وأقفلا الباب. لم أنته من شرب الشاي حتى تناهى إلى مسمعي ذات الصوت فأدركت مرة أخرى بحواسي بأن إنساناً ما يُعتدى عليه بالضرب المبرح!! لم يكن بمقدوري البقاء دون فعل شيء،

فنهضت كالمرة الأولى ودنوت من الباب، أحنيت رأسي إلى الثقب فوقع نظري على بدر عاريا وثيابه معلقة على الحائط وهو يهرب من الرجل الذي يحمل السوط بيده اليمنى يلاحقه مسعوراً من زاوية إلى أخرى ويسدد ضربات السوط الموجعة على جسده. يستسلم بدر في إحدى الزوايا وينهال الرجل بضربات متلاحقة على جسده، فيصدر بدر آهات كسيرة خافتة إلى أن تنطفئ وما يزال الرجل ينهال على المسكين الذي بدا لي بأنه فارق الحياة في تلك الزاوية. لم أحتمل هذا المنظر فركلت الباب بقوة وأنا أشتم الرجل، ثم مددت يدي أحمل السيخ الذي نُنزل ونعلّق به الثياب وتحديت الرجل أن يخرج حتى أنهال عليه بالضرب انتقاماً لصديقي، ولم يخرج، ثم خرجتُ إلى الشارع أصرخ وأستغيث حتى تجمع الناس داخل المصبغة، ويبدو أن جارنا الذي يلاصق محله المصبغة قد عرفني فابتسم وقال للناس بأنني أهذي، وهذه ثاني مرة أهذي فيها لأن ما أقوله يبدو لي بأنني أراه فأتوهمه حقيقة، وأن جاره الرجل الطيب يتعامل مع عماله بكل طيب. بعد قليل خرج الرجل من الباب ولحقه بدر وهما في حالة إدهاش لما بدر مني وكانت علامات الارتياح بادية على وجهيهما وكأنهما خرجا للتو من حمّام. فقال الجار للناس: ألم أقل لكما أنه هذيان.

ثم قال لهم بدر ذات الجملة التي أوبخني بها في المرة الأولى.

احمرت وجنتاي وهم يصوبون إلى نظرات ازدراء ويخرجون.

أحسست بأنني قد وقعت بغتة في ماء مثلج ولم أجسر على رفع عيني والنظر في الرجل الذي أكرمني منذ قليل بضيافتي فأعدتُ على ضيافته بسوء. خرجت عبارات اعتذارية متلعثمة من فمي دون أن أرفع رأسي.. بعد لحظات دخل عاصم فخرجنا ثلاثتنا نخطو بخطا متعبة نحو البيت. حتى مجرد التفكير بدخول تلك المصبغة استبعدته عن خيالي، فكيف لي أن أعود فأدخلها وقد أسأت إلى الرجل. لم يعد يهمني الذي حدث أكان وهماً أم حقيقة، من الأفضل أن أبقى بعيداً.

هذا ما قررت بيني وبين نفسي، وكل ذلك دون أن يعلم عاصم بشيء مما حدث، لكن الأمر الذي أثارني هو أن بدر جلب معه ذات أمسية صورة كبيرة لمعلمه وعلقها في صدر الغرفة قائلاً بأنه يفعل ذلك كعلامة لحبه الشديد لمعلمه الذي يحسن إليه، وعندما نجلس ونتسامر فإنه يجلس معنا لكن أنظاره تتسمر في تلك الصورة وهو يتمتم: ليته الآن معنا هنا.. كم اشتقت لرائحته. لم يمض وقت

طويل حتى رأيت بدر يقول بأن معلمة أصر عليه ليقنعني بالذهاب إلى المصبغة عندما أفرغ من عملي كما كنت وأنه نسي تماماً ما سببته من إحراج له في المرتين السابقتين: أنا لم أفعل به شيئاً حتى يخاصمني، هو أساء بحقي وهو الذي أخذ بخاطره.. هل أذيته بشيء حتى يجافيني.

وكررتُ ذات العبارة بيني وبين نفسي: هل أذاني الرجل بشيء حتى أجافيه.. أنا الذي سببتُ له ولبدر ولي الإحراج بين الناس، وأنا الذي يخاصم. أصغيتُ لهذه العبارات جيداً وعند الساعة السابعة والنصف من أمسية اليوم التالي رأيتني واقفاً في باب المصبغة بعد قطيعة دامت عشرين يوماً، وفي ذاك الوقت يتوقف بدر كعادته من أخذ الثياب المكوية إلى بيوت أصحابها، ويُدخل البسكليت إلى المصبغة، وهو بسكليت خاص بهذه المهمة له سلة أمامية واسعة تتسع لكم جيد من الثياب. فوجئت بالرجل ينسحب من خلف الطاولة قادماً لاستقبالي. صافحته وكلي إحراج من الموقفين السابقين وعلى الأخص الموقف الثاني الذي بدر مني، بيد أنه قبلني قبلتين على خدَي، ثم أمسك بيدي وأجلسني على كرسيه خلف الطاولة وقال لبدر: اصنع له فنجاناً من القهوة. ثم ناولني سيجارة وأشعلها لي بقداحته. بعد قليل أحضر بدر فنجان القهوة ووضعها أمامي فنهض

الرجل على إثر ذلك وهو يقول: سأدعك تستمتع بالقهوة والدخان، خذ بالك من العمل. وخطا نحو تلك الغرفة اللعينة ليلحقه بدر. خفق قلبي وأحسستُ بأن حدثاً سيئاً سيقع، ولكن لم يكن باستطاعتي أن أمنعهما من الدخول. مرت دقائق قليلة وعادت تلك الأصوات إلى مسمعي. أجل أنا واثق بأنه صوت بدر، وأنا واثق بأن الرجل يحمل السوط ويلحقه من زاوية لأخرى. لكن ما الذي بيدي أن أفعله. تعالى صراخ بدر وتعالت الحركة، حركة شخص يطارد شخصاً ويجلده. فنهضتُ مرة أخرى من مجلسي ودنوت إلى الباب، نظرتُ في الثقب وإذ ببدر العاري يتهرب من سوط الرجل وهو يلاحقه وينهال عليه بالضرب المبرح. رفعتُ قدمي لأخبط على الباب، لكنني تذكرت ما سيقوله لدى خروجه، وما سيحل بي من توبيخ فأعدت قدمي وتراجعت إلى الوراء إلى أن رأيتني خارج المصبغة.

ﮓﮓ

رجل توارى خلف دخان سيجارته

طوال شهرين وهي تتحدث في الهاتف كل مساء وتصر أن نلتقي، والحقيقة فإن نبرات صوتها لم تشجعني لهذا اللقاء. بدت لي امرأة باردة، أو ربما مكررة، فالمرأة التي لا تجذب الرجل بصوتها، أو بأفكارها، لا أظن بأنها ستجذبه بشخصيتها. هذا ما كونته في مخيلتي رغم أنها قالت بأن زوجها قد رمى عليها الطلاق بسبب اندفاعها إلى قراءة الروايات والقصص. امرأة مندفعة إلى القراءة، هذا بذاته الذي يجعلني أقول: طبعاً.. طبعاً.. لا بد أن نلتقي في وقت ما. لكن هذه الوعود المؤجلة لم تستطع أن تبعث قليلاً من الدفء نحوها، فهي قالت لي كل شيء منذ المكالمة الثانية وأما المكالمات التالية فلم تجعلني إلا أكثر إصراراً على عدم اللقاء بها. لكنها أنثى وربما احتراماً لنساء أخريات غاليات صادفن حياتي فإنني احترمها، وهذا بذاته

منعني من مواجهتها بحالة البرود نحو مجرد الحديث معها. لكن استطاعت بعد محادثات شهرين أن تقنعني بضرورة اللقاء، وحدث ذلك عندما خيرتني بين أن تحرق كتبي مع كل ما في بيتها من كتب، وبين أن نلتقي ولو للحظات قليلة. عندها تذكرت عبارة كنت قد سمعتها من أحد أصحاب المحلات ومفادها أن الزبون دوماً على حق. فتمتمت لنفسي: إذن لماذا لا يكون القارئ أيضاً دوماً على حق. فإذا كان ذاك الرجل يتقبل زبائنه دوماً رغم عيوبهم، فلماذا لا نتقبل نحن قراءنا رغم عيوبهم، ألا نتوجه بالكتابة إليهم، ولو امتنعوا عن القراءة، فلمن سنكتب، علينا أن نزيد من أعداد قرائنا بكل الإمكانات ونقول: إنك على حق أيها القارئ العزيز.

على هذا النحو راق لي أن أقارن نفسي بذاك البائع الذي لا يقبل أن يخسر زبوناً، وقلت: أنا أيضاً لا أقبل أن أخسر قارئة بأي حال. وحيث أن وضعها الاجتماعي لا يؤهلها لتزورني في بيتي، فقد اتفقنا أن أستعير سيارة صديق لي ونتحدث داخلها بعد الغروب في إحدى مخارج المدينة. التقينا بجانب دوار فأشارت لي بالوقوف واتجهنا على الفور إلى ما يشبه منحدر أخفى حجم سيارتنا. امرأة طويلة القامة ذات خصر رفيع، تضع نظارة طبية على عينيها وبين

لحظة وأخرى ترفعها من منتصفها نحو الأعلى بسبابتها، بيضاء البشرة، لها شعر أصفر طويل يكاد يخفي ظهرها بكثافته، ترتدي بنطال جينز مع قميص نصف كم، بدت لي بأنها طالبة جامعية، أو أنها تخرجت للتو صيدلانية، لكن معلوماتي تفيدني بأنها ربة منزل فاشلة، ولذلك طلقها زوجها بعد ستة شهور من الزواج، وهي خريجة معهد منذ ثلاثة سنوات وتفشل في أن ترى مكاناً لها في إحدى المدارس ضمن المدينة، وكذلك ترفض التدريس في القرى البعيدة لأنها تخاف ركوب السيارات لمسافات طويلة بشكل يومي وتشعر بأنها تكون في زنزانة. بعد نحو نصف ساعة فوجئنا بسيارة تفرمل جانب سيارتنا، نزل منها ثلاثة أشخاص، أشاروا لنا بالنزول. لم أفتح الباب، وأدرت محرك السيارة، صعد أحدهم وبسرعة خاطفة أوقف سيارته قبالة سيارتنا، فعدت نحو الخلف، تقدم هو الآخر حتى وصلت الطريق وصار من الصعوبة أن أمضي إلى قلب المدينة نحو الوراء وهو يتقدم بسيارته الملاصقة بواجهة سيارتي.. ورفيقاه يحاولان اللحاق بنا جرياً. وأمام إلحاح المرأة التي علا الذعر وجهها، رأيتني مضطراً للوقوف، ثم لا أدري كيف خطر لي أن أتقدم بسيارتي، وبالفعل قدتها بشكل مباغت نحو الأمام، فعادت السيارة الملاصقة إلى الوراء بقوة دفع

سيارتي. عندها استدرت نحو اليسار وقد انفتح الطريق أمامها، سارعت بها لكنني شعرت بعدم سيطرتي الكافية على المقود عندما مالت السيارة إلى الأراضي الزراعية ووقعت في منحدر على وشك أن تنقلب تماماً.

هرع إلينا الرجال الثلاثة مذعورين فلم أجد بداً من فتح الباب والنزول، وقد خرجتْ من فمي عبارة: ماذا تريدون؟

اثنان أمسكا بي من رقبتي وقيدا يدي خلف ظهري، والآخر قيد يدَي المرأة وقادونا إلى سيارتهم، توجهوا بنا إلى قلب المدينة. قلت: ستشعلون ناراً لن تنطفئ، هذه المسكينة ستنتهي.

قال أحدهم: لقد أحلتم المدينة إلى بيت دعارة كبير.

قالت المرأة وهي ترتعد: يا أخي، لسنا ممن تظنون، هذا الرجل الذي قيدتموه كاتب، وأنا معجبة، قرأتُ بثقل سيارتكم كتباً.

دنا أحدهم هامساً في أذني: ألا تعرف كيف يمكنك أن تستر على نفسك وعلى ابنة الحلال.

وعندما رآني أنظر في عينيه محتقراً إياه، لم يعد يلح في مطلبه.

قلت للمرأة: لعل مَنْ في القسم يتفهم وضعنا. نزلنا من السيارة وعلى الفور قادونا إلى شخص يقف خلف طاولة، يتناول فنجان قهوة ويدخن بعصبية، وما إن وقعت أنظاره علينا حتى انفجر: أولاد الداعرات ألن تريحوننا من مطارداتكم، لكن سأعرف كيف أطهّر المدينة من دنسكم.

قلت له: لا بد أن خطأ ما قد حدث.

وتشجعت المرأة بالقول: هل هناك ما يمنع ركوب امرأة مع رجل في سيارة ويتحدثان في أمر شديد الخصوصية؟ لا أظن بأننا فعلنا ما يخل بالأخلاق ليحدث لنا هذا، أنا امرأة مثقفة، وهذا كاتب مؤلفاته هي أطول منك، كنا نتحدث عن الأدب والحب ونسمع موسيقى خافتة، كنا نستمتع بوقتنا فأفسد هؤلاء علينا حالة الشاعرية التي كنا فيها، وطلبوا منا ضريبة هذه الشاعرية، وعندما امتنعنا قادونا بهذا الشكل إلى هنا.

خبط بكفه على الطاولة وبدا عليه بأنه سينفجر بعد لحظات والكلام يغلي في فمه: سأعرف كيف أربيكم. وأمر الرجل الذي يقف على يمينه أن يفتح ضبطاً فينا، ثم أمرنا أن نعطيه بطاقتينا الشخصيتين، فأعلمته أن بطاقتي في البيت. عندها بدأ في مساءلتي والرجل ذو الشعر الأشيب

يدوّن ما يخرج من فمي كلمة كلمة في دفتر أسود ضخم وقد وضعه على طربيزة عليها نصف كأس من شاي بارد.

. ما اسمك يا...

هزتني العبارة واستبد بي حرج غريب وأنا ألتفت إلى معجبتي التي هزتها العبارة القاسية كذلك. ولا أعرف كيف استطعت أن أقنع نفسي بأنني أمام امتحان يختبر قوة احتمالي في مواقف محرجة كهذه، وخطر لي أن أواجه الموقف بسخرية وأضحك من شر البلية وقد أضحك معجبتي فننسى الإهانة معاً وقلت: اسمي يا سيد.. اسمي الثلاثي: عباس محمود العقاد.

وهنا بالفعل انفجرت معجبتي المقيدة بضحكة مباغتة فأسكتها الرجل بصوته الصاخب: اخرسي يا فاجرة.

واتجه ثانية إلي يردف بلهجة حادة: وأمك ما اسمها؟

أيقنت بأن فكرتي بدأت تسري عليه عندما كتب الرجل الاسم دون أي ريب، وهذا بذاته بدأ يخفف عني وعن المرأة أيضاً من وقع الشتائم التي تنهال علينا. مضيت في الفكرة قائلاً: أمي اسمها مي زيادة. ومرة أخرى قهقهت المعجبة غير قادرة على ضبط نفسها، فقذفها الرجل بكأس الماء لتصمت. وعاد ينظر إليَّ ثانية ويقول: قل لي الآن أسماء إخوانك وأخواتك مع أعمالهم، ابدأ بالكبير.

قلت وأنا أكتم ضحكة على وشك أن تنفجر في فمي: لكن هناك مشكلة. همهم: هل نسيت أسماءهم؟!

قلت: لا، بل أبي لشدة حرصه على ألا يضيعوا قد أسماهم أسماء مركبة. جلس على كرسيه لأول مرة منذ دخولنا، طلب كأساً من الشاي وأشعل سيجارة جديدة: قل الأسماء المركبة لكل منهم.

قلت: رفاعة الطهطاوي... ألم تسمع بأخي رفاعة.. إنه الكبير؟

أجاب بدهشة واستهزاء وهو يجحظ عينيه: ومن يكون حضرته لأسمع به؟

قلت: إنه أشهر بائع فجل في سوق الخضار.

ـ حصل الشرف، والآخر؟

قلت: طه حسين ألم تسمع به؟

ـ وما عمله لأسمع به.

ـ أقدم صياد سمك في المدينة.

ـ غداً اتصل به ليأتي إلي، والآخر بسرعة نحن لا نقبض رواتبنا من أخيك صياد السمك هذا.

ـ حاضر، الثالث هو معروف بابن رشد، لا تقل بأنك لم تسمع به.

. وهذا ما عمله؟

. طبيب بيطري.

. لا توجد لدي بهائم لأتعرف به.. أما خلصوا.

. بقي الأخير، لا بد أنك سمعت به، إنه توفيق الحكيم.

. وفي أي مكان يعمل حكيم زمانه هذا؟

. خياط نسائي.

وأخوتك.. بسرعة.

. الكبرى نازك الملائكة، أكيد أنك سمعت بها.

. وهل زارتنا هنا من قبل؟

. لا، لكنها من الكوافيرات الشهيرات في المدينة.

. أسماء غريبة أسمع بها لأول مرة يبدو أن أباك رجل معقد حتى يسمي هذه الأسماء الغريبة، والثانية؟

ـ غادة السمان.. لا تقل بأنك لم تسمع بأختي غادة. وقبل أن يجيب فشلت معجبتي من كتم ضحكها، قذفها الرجل بنفاضة السجائر: اخرسي يا زانية. ثم عاد إلى مساءلتي: وهذه ما عملها؟

. منجّمة. بقيت الأخيرة، لا تقل بأنك لم تسمع بها.

. من هي؟

. الفارعة الشيبانية

. وما تعمل فارعتك هذه؟

. مستخدمة في حضانة.

وقبل أن يباشر بمساءلة المرأة، تجرأت وقلت له: هل تسمح أن أسألك سؤالاً؟

نظر إلي بتعجب وهو يهز رأسه موافقاً. قلت: هل أنت خريج جامعة؟ لأول مرة رأيت ابتسامته التي لم تشبه أي ابتسامة رأيتها في حياتي، ثم أشعل سيجارة قائلاً: وكيف أكون في هذا الموقع بدون حصولي على إجازة جامعية.

أردت أن أصوب نظري في وجهه بصورة أدق، لكن معالم وجهه بدأت تختفي خلف دخان سيجارته.

ꕤꕤ

قطة أكلت صاحبها

كم قلت له أن نعود، كم ألححت عليه، بيد أنه أصر على أن نكمل رحلتنا وألا ندع لقطة أن تفسدها علينا. قطة البيت التي نسي أن يُخرجها من غرفة النوم قبل أن يغلق الباب لننطلق في رحلتنا التي خصصنا لها عشرة أيام خارج البلاد.

كانت الساعة قد بلغت العاشرة ليلاً عندما تذكّر أمر القطة، وكان ثمة متسع من الوقت لنعود ونفك أسرها. قال بغتة والباص ينطلق بنا بسرعة فائقة من هذه المدينة النائية نحو العاصمة التي سننطلق من مطارها إلى خارج البلاد: أتعرف بأنني نسيت أن أُخرج قطة البيت من غرفة النوم، أجل نسيت، الآن تذكرت بأنها دخلت غرفة النوم عندما كنت أعد ثيابي في الحقيبة، لمحت القطة تلحقني وتموء وكأنها علمت بسفري لتذكرني بأن علي أن أخرجها من البيت قبل أن أخرج وأغلق الأبواب عليها. قلت في نفسي

وأنا أعد الثياب: أجل، أجل سوف أضعها في بيت الجيران ريثما أعود، لو لم ترني نفسها، الآن لكنت نسيتها في البيت، حسناً فَعلَتْ. ولكن هذا الذي حدث، لقد نسيتها وخرجت مسرعاً عندما طرقت أنت الباب، لقد أقفلت حتى غرفة النوم التي لحقتني إليها. ليتها بقيت في المطبخ لأنها هناك كانت ستجد بعض الماء والطعام، أجل هناك رز، وبرغل، ومعكرونة، وبصل يابس، وثوم، وتوابل، وبعض المياه المتبقية في الأحواض وأرضية الحمام يمكن لها أن تستخدم ذلك إذا ساءت بها الأحوال.

قلت: بدل أن تقول لي كل هذا يا راجح يمكن لنا أن نوقف الباص الآن وننتظر على الطريق أي باص عائد، فيعيدنا إلى البيت، نطلق سراح تلك المسكينة وننطلق من جديد في رحلتنا.. هه ما رأيك.

قال: يا رجل ماذا تقول، لقد حجزنا في الطائرة ورتبنا أمورنا على الموعد، لم أصدق بأننا ابتعدنا قليلاً عن المدينة التي أشعر بحاجة نفسية للابتعاد عنها لبضعة أيام، ألا تدري أن فكرتك هذه ربما تستغرق يوماً كاملاً يمكن أن يؤخرنا عن موعد إقلاع الطائرة التي حجزنا فيها، هذا إذا حظينا بباص يقف في هذا الليل ليعيدنا إلى الكراج، مضت ساعة واحدة على انطلاقنا وأمامنا نحو سبع ساعات حتى

نصل إلى العاصمة، لا تنس بأننا حجزنا في هذا الباص منذ يومين، وهل تظن بأننا سنرى باصاً جاهزاً إذا عدنا.

قلت: ما يهمني قبل هذا كله يا راجح هو أن ننقذ حياة تلك المسكينة التي سوف تموت ببطء ونحن نفرح ونمرح في رحلتنا، سوف تدفع ضريبة رفاهيتنا وانطلاقنا بالجوع والعطش والحبس.

قال راجح وهو يربت على كتفي بلطف: انس يا صديقي انس، كم من أمور ليس لها دواء غير أن ننساها.

عشرة أيام، أجل عشرة أيام سنمضيها في نزهات وسباحة ومتاع وأجواء جديدة في هذا الصيف بالغ الحرارة. منذ شهرين اتفقنا على هذه الرحلة الثنائية عندما شعرنا بضجر روتين الحياة والعمل وقلنا بأننا نحتاج إلى بعض التغيير، وبالنسبة لي فاعتبر ذلك نوعاً من العلاج لأنني في الأيام الماضية تعرضت لألم حاد في المعدة والأمعاء ونصحني الطبيب بأن أسافر بضعة أيام لأن علاقة المعدة هي علاقة مباشرة مع المزاج العام والحالة النفسية، والراحة النفسية وهدوء الأعصاب يلعبان دوراً أكثر فاعلية من أي دواء، وقال بأنني لا أحتاج حتى إلى حمية إذا قررت السفر. وصدقت كلامه الذي بدا واثقاً منه وترك في نفسي أثراً به، وعلى إثر ذلك رتبت أموري ولم يخطر ببالي أن أشرك أحداً

معي في هذا السفر، لكن صديقي راجح عندما علم بذلك صدفة قال بأنه هو الآخر يشعر بحاجة للخروج من الروتين اليومي الممل الذي يرزح تحته منذ ثلاث سنوات دون أن يخرج حتى من المدينة.

حجزنا في الطائرة من خلال مكتب الطيران الموجود في المدينة وأصبح الأمر واقعاً. وهاهو الواقع يأخذ مساره، فقد وصلنا العاصمة التي بدت لي أنني أراها أول مرة، استرحنا في الفندق حتى موعد إقلاع الطائرة، ثم اتجهنا إلى المطار لننطلق في رحلتنا. لكن رغم كل هذا الواقع الذي بدأ يبعدنا عن البيت والبلاد معاً ما أزال أشعر بحالة من الإثم نحو تلك القطة المسكينة التي لا بد أنها ستقضي جوعاً وعطشاً وربما اختناقاً من شدة الحرارة في تلك الحجرة المغلقة، والأمر الذي بدأ يسبب إزعاجاً مباشراً لي ولراجح هو أننا كلما نتناول طعاماً شهياً أو شراباً منعشاً فإن صورة القطة ترتسم على المائدة وهي تموء وتذرف الدموع، وكلما وقعت أنظارنا على قطة في مكان ما أو حتى في التلفاز فإن قطتنا تأتي بكل حضورها وتموء مواء كسيراً ذارفة دموع الألم والاختناق والجوع، بل أحياناً وهي تلتهم الفراش جوعاً، وتخبط على الباب بكل بقايا الحياة لديها، وتموء بصوت

مرتفع، تخربش على الحيطان في محاولة لإسماع مَنْ يمكن أن يسمعها ويأتي ليفك عنها الأسر.

مضت الأيام العشرة التي لم نشعر فيها بالانطلاقة الكاملة التي خططنا لها، لأننا لم نستطع أن نتخلص من شبح القطة التي كانت تعيدنا إلى تلك الأجواء التي ابتعدنا عنها، القطة التي حجزنا حريتها في تلك الحجرة المغلقة، وأفسدت علينا حريتنا في هذه الفسحة الشاسعة.

وعدنا في اليوم الأخير، ربما لا لنعود بقدر ما نرى ما آلت إليه حال قطتنا، وعند ذاك كانت لدي رغبة غريبة بأن أذهب مع راجح إلى بيته قبل أن أتجه إلى بيتي لأرى القطة رغم أننا وصلنا في الثانية عشر ليلاً.

ولجنا البيت، وعلى الفور اتجه راجح إلى غرفة النوم ماداً إليها المفتاح بسرعة فائقة، ولا أدري ما الذي بالضبط حدث غير أنّ صراخاً هائلاً لا يشبه المواء صدر من ذاك الحيوان الذي اندفع بكل قوة وشراسة إلى عنق راجح الذي لم يملك غير أن يسقط من طوله على الأرض ويقاوم بكل ما يملك من وسائل المقاومة، انتابني الهلع وجحظت عيناي من هول الصدمة وأنا أرى القطة تفترس عنق ووجه صديقي وهو يقاوم ويصرخ من دون أي جدوى، والقطة تنهش من لحمه بتوحش لم أره في حيوان قط. صرختُ

بأعلى صوتي في الجوار الذين دخلوا مذعورين ليروا ما يحدث دون أن يجسر أحد منا أن يدنو من ذاك المنظر المتوحش الذي يحدث أمامنا. أحد الجوار غاب قليلاً وأحضر مسدساً، بيد أن البعض منعه من إطلاق النار خشية أن يصيب العيار جسد راجح، وأصبحنا على قناعة أن أي واحد منا لو خطا خطوة واحدة سوف يلقى مصير راجح من تلك القطة التي فقدت كل ذرة من ذرات الألفة وتحولت إلى حيوان متوحش، ربما إلى أكثر حيوانات العالم توحشاً ورعباً وشراسة.

ولم يبق أمامنا سوى أن نقوم بمحاولات بسيطة مثل رشها بالماء الغزير من بعيد، وقذفها ببعض أثاث البيت، بيد أن ذلك لم يمنعها من مواصلة الافتراس حتى فقد راجح كل حركة واستسلم لأنيابها، وعندئذ وقفت القطة بأنيابها المدماة وهي تقف على صدره وتلعق لسانها بشفتيها وترمق وجهه الذي خرج عن إطار الوجه البشري بنظرات غريبة، ثم ترفع رأسها وتصوب إلينا نظرات لم تشبه نظرات أي قطة أو أي حيوان رأيناه من قبل، وهذا ما أبقانا في وجل من أمرنا نحوها، فما الذي ستفعله بعد ذلك ونحن نتوجه إليها بنظراتنا المريبة والحذرة وسط صمت دموي خيم على المكان بعد كل ذاك الضجيج الهائل. لكنها نزلت من صدر

الرجل المسجى على ظهره دون حراك، لم تنط كما تفعل القطط، بل مدّت خطوات هادئة وشديدة البطء بثقة بالغة ففسحنا لها المجال لتخرج ونحن في دهشة من أمرنا. قبل أن تخرج من باب البيت، وقفت هنيهة التفتت فيها إلى الرجل، رمقته بنظرة أخرى ثم خرجت ونحن ننظر إليها حتى توارت عن أنظارنا في قلب العتمة.

هرعنا إلى راجح الذي كان قد فقد أي حركة، وأي نبضة، حملناه إلى أقرب مشفى رغم معرفتنا بأننا نحمل جثة خرجت منها الحياة، وهذا ما تأكدنا منه مجدداً هناك.

مع بدء طلوع الضوء عدت إلى بيتي، وعندما أخرجت المفتاح لأمده إلى فتح الباب انتابتني رهبة وأنا أتخيل بأنني ربما . دون علم . قد أغلقت الباب على قطة دخلت البيت خلسة.

اتصلت من عند الجوار بالنجدة التي أتت، فدخل رجلان وقد تجهزا تماماً لأي طارئ، فتشنا البيت غرفة غرفة وركناً ركناً وخرجنا وهما يقولان: لا شيء من ذاك القبيل أستاذ، يمكنك الدخول باطمئنان إلى منزلك.

رسول

عندما أعلنت المحطة المحلية نهاية برامجها، تجاوزت ساعة البلاد منتصف الليل بساعة. لبثت أصغي للحن النشيد الوطني متأملاً رفرفة قماش العلم، وبغتة انتفض جسدي كله من استغراق في محراب هذا الطقس إثر وقوع دقات خافتة على بابي الخشبي في الغرفة المطلة على الشارع، تملكني شعور غريب بالوجل من خطر مباغت على وشك الوقوع، أدركت المعنى الحقيقي

لسخافة أن يعجز الإنسان عن رد فعل يدفع عن حياته خطراً يراه، أن يستسلم بصمت مرغماً. قفزت نبرات مضطربة من صوتي: مَنْ.. من؟!

توقف الدق. غدا السمع في ذروة استعداد لتلقي نبرة صوت من الكائن الذي فجر حالة الفزع في أعماقي. وبدت كل ذرة في كياني تلح على حاسة السمع لتأتي بنبأ مطمئن إلى ثورة الهيجان التي ألهبت البدن والروح. لثبت حالة الانتظار قائمة ونظري مسمر في ممسك الباب مترقباً وقوع

شر عظيم. بعد دهر من الانتظار عاد الدق الخافت وكأنه يصـدر مـن أنامـل طفـل، رميـت نبـرات تسـعى إلـى ثقـة الرجولة: من أنت؟!

امتـزج الـدق الخافـت بصـوت كسـير اسـتقبله السـمع بالكاد: أنا..أنا..

دفعنـي السمع إلى قبضـة البـاب لتمييز نبرات المجيب وخرجت مني نبرات سائلة: من أنت؟

عـاد الصـوت الكسـير مـردداً: أنـا.. أنـا ثم عقب بعد هنيهات: أنا رسول.. رسول.

بدا هذا الصوت كخزان ماء بارد رش على جسدي: أ أنت رسول حقا.

. رسول... رسول.

أجل إنـه رسول الذي تعرفت بـه منذ سنتين في إحدى الحدائق العامـة، كنت جالسـاً أتنـاول قطعـة مثلجـات، فسلم علـي شـخص وجلـس يتحـدث فـي الأدب العـالمي، ويعـدد الروايات التي قرأها.

قلت: حقاً أنا سعيد بمعرفتك.

لـم يمكث طويلاً فنهض يردد عبارات اعتذاريـة لطيفة علـى قدومـه إلـي بدون معرفة سابقة، فكررت امتنـاني علـى

بادرتـه وقـد نـهضـت أمـد إليـه كـف الـوداع علـى أمـل لقـاء قريـب. عندها هز رأسـه وقال: سـأزورك فـي البيت قريبـاً إن لم يزعجك هذا.

هززت كفه بكفي: هل تعرف البيت؟

ابتعد ملوحاً بكف الوداع مرة أخرى وهو يردد: أعرفه جيداً يا صديقي.

أظنها عشرة أيام مضت على ذلك اللقاء الخاطف حتى رأيته يطرق بابي بخجل ويتمتم: هاأنذا وفيت بوعدي وزرتك في البيت، أرجو أن يكون الوقت مناسباً بالنسبة لك. أذكر أن الوقت كان بعد عودتي من العمل بدقائق معدودة، وكأنه كان ينتظر دخولي البيت ليلحق بي. ولم يكن الوقت مناسباً لأنه موعد تناول الغذاء والاستمتاع بقليل من شاي مع نشرة أنبـاء بعد الظهيرة الرئيسية، ثم الغفوة علـى صـوت المذيع وهو ينتقل إلـى النشرة الاقتصـادية التـي لا تعنينـي. جلسـت إلـى مائـدة الغـذاء وأنـا أدعـوه لإشـراكي فـي الوجبـة الشـهية الجـاهزة التـي أحضـرتها للتـو مـن المطعـم. قـال: تغـذيت وجئـت، وتقدم لا ليشـاركني الطعـام، بـل ليشـاركني الجلـوس علـى مائـدة واحـدة وبـين لحظـة وأخـرى يمـد يـده إلـى قطعـة صغيرة من صدر الدجاج ويتناولها كمن يتسلى بحبات بزر قبل النوم. من يومها بدأت زياراته تتواصل إلي في أوقات

وأماكن مختلفة، فأحياناً يأتي إلى البيت في صبيحة يوم عطلة رسمية، وأحياناً يأتي مساءً، وأراه مرات يأتي لمقر عملي يجلس ساعة، يشرب الشاي ويتحدث عن رواية جديدة قرأها، أو عن رأيه في انتخابات مجلس الشعب، عن نبأ يكون حديث الساعة، ويصادف أن نلتقي في شارع ما، أو بجانب واجهة مكتبة يتأمل عناوين صحف ومجلات، فنمشي في بعض الشوارع إلى أن أقضي حوائجي، فيحمل معي ما أشتري من أغراض للبيت ويمكث إلى وقت متأخر من الليل.

كل حديث رسول يدور حول: السياسة، والدين والأدب حتى بدا لي أنه لا يجيد الحديث بجملة مفيدة عن غير ذلك. وأتعمد في لحظات الملل من هكذا توجه دائم لمسار الحديث إلى تغييره لمسار حياته الشخصية، علاقاته مع الجنس الآخر، فيتهرب بطريقة غاية في الذكاء تجعلني أكف عن إلحاحي غير المباشر. وأظنه يعد ذلك مضيعة للوقت والصوت في أمور خاصة، بينما هو يسعى لنقاش المواضيع الكبرى التي تعني المجتمع برمته. مددت يدي إلى المفتاح وصوتي يسبق فتح الباب: رسول.. رسول.. أما زلت واقفاً هناك، تعرف بأني أعيش وحيداً ولا أفتح لأحد بعد الواحد ليلاً، قل شيئاً لأتأكد بأنك رسول.. هل يصلك

صوتي.. أأنت الذي هناك.. أهو أنت الذي يقف وراء الباب؟

تناهى صوته خافتاً، ولكن كهدير وقع على مسمعي: افتح يا صديقي.. لن يكون هذا غيري.. أتسمع، هذا صديقك رسول، إن لم تكن مهيئاً لاستقبالي في هكذا وقت مزعج سأعود.

أدرت المفتاح في القفل، وسحبت قبضة الباب بحمد الله إلى الخلف، ليفتح فم الغرفة ويبتلع رسول كما ابتلعني وينغلق بأقصى سرعة.

ـ آسف يا رسول، كنت قلقاً لأنك لم تزرني في مثل هكذا وقت متأخر من قبل، وظننت أن أحداً يقلد صوتك. قعد بكبرياء مهزوم والانهاك مع سمات الهزيمة يصرخان في وجهه، يا له من مشهد مؤلم، هذا الكائن البشري دوماً كئيب، يستاء من المجتمع كله، لا أعرف ماذا يريد بالضبط، وهو ذاته لا يحدد هدفاً معيناً لنفسه. رفض لثروة الطائلة التي أصابته من ميراث والده ولم يستثمرها، رفض المجتمع عندما شرع له ذراعيه، رفض الدين وثقافته الدينية تؤهله لأن يكون فقيها بارزاً في المدينة، رفض السياسة وثقافته السياسية تؤهله لأن يكون رجل سياسةٍ بارزاً في

الدولـة، رفـض العمـل فـي المجـال الأدبـي وثقافتـه الأدبيـة تؤهله ليكون مشروع ناقد مهم.

أمـام الحيـرة التـي تنتـابني فـي شخصـية هـذا العزيـز، أتسـاءل وأنـا أنظـر إلـى استغراقه فـي عمـق السـكون: هـل رسـول ينظـر إلـى شـيء، ولا يريـد أن يفضـي لأحـد عمـا ينويه؟!

إنه كائن شفيق محبوب من قبلي، أحياناً وهو يتحدث بعمق فـي موضـوع جاد، ويستغرق فـي انفعـال حـاد يشـوبه بعض انضباط، استمتع بحديثه الذي يرفع آلاماً عن كاهلي ويستبد لها بنشوة غامرة، يا له من كائن جبار . رغم عذوبته ورقته . قادر على التأثير في مستمعه فأثب وأطبع على خده قبلـة: أشكرك، يقاطع حديثه، ثم يستأنف سياق الموضـوع حتى يشبعه أمثلة، ولا أظن أن أي أستاذ جامعي يمتلك ما يمتلكـه رسـول مـن قـوة وحجـة وقـدرة هائلـة علـى التـأثير والإقنـاع. لا أخفـي أن هـذا الرجـل معلـم كبيـر، يعلمنـي خصـالاً ومزايا طيبة، وهذا ما يدفعني لإظهار كل مشـاعر الاحتفاء به والإفادة من استنارة روحه، رغم أن هذا الصداقة العميقة معه تعرضني للنقد من بعض أصدقائي الذين لا يجدون فيه إلا رجلاً متطفلاً على أموال وأوقات الآخرين، فيزعجهم في بيوتهم وفـي أعمالهم بحضوره والعزف علـى

أسطوانة اضطهاده ذاتها والتي ملّوا منها، فمن الأفضل لهذا المتطفل أن يجد لنفسه عملاً ينتج من خلاله نتاجاً مادياً، يكون بمثابة هدية منه للمجتمع الذي يطعمه ويكسوه ويكتب له ويدفئه ويكيفه ويطببه ويسمعه الأغاني والموسيقا ويقدم له المواصلات، هذا المجتمع الذي أنجبه وأرضعه وغسله يوماً يوماً، وشهراً شهراً، محا أميته. وبالتالي يأتي هذا المتطاول فيتطاول على أرباب نعمته فيقذعهم ويوصمهم بالعار والجهل والتخلف.

ولكن نقاشه الجاد عن /عدالة قضيته/ كما يسميها ولا يبينها، يجعلني أدع ما أسمعه من هؤلاء عن سلبيته مهب الريح، فأراه مثالاً للنقاء الروحي في نفسه تنمو بذرة نظرية كبرى لسوف تأتي أكلها يوماً ما، فأرجو في قرارة نفسي أن يتبنى أحد رعاية هذا الرجل حتى ينتهي إلى ما ينظر إليه، فإن عزة نفسه لا تمكنه من السؤال حتى لو قضى جوعاً، وكم من مرة يمضي مسافات طويلة تحت الشمس ولا يصعد سيارة نقل عامة لأنه لا يمتلك أجرة التنقل من حي إلى حي، ويأبى السؤال وإظهار خواء جيبه، وكم مرة يُدعى إلى وليمة، لكنه يبدي شبعه وهو في واقع الأمر أكثر الناس حاجة لتناول قطعة من لحم في وليمة، وليس هو، لكنني ألمس هذا الواقع عندما أكون برفقته.

رسول وحيداً وكجندي بلا بندقية يواصل كفاحه وسط أناس من غير زمانه لا ينتمي إليهم، يمضي غير آبه بغمز ولمز ونظرات شفقة ترمقه من كل صوب، فهو أيضاً يبادلهم نظرات أكثر شفقة بهم وهو يرمق ديكوراتهم وسذاجة نفوسهم.

هكذا استطاع أن يصفي حساباته مع الجميع ويسخر من كل أفراد المجتمع، لا تعجبه نشرات الأخبار، خطب الجمعة، ديكورات القادمين من القرى، المراكز الثقافية، التلفاز، لذلك لا يقوم بعمل، لا ينتج شيئاً، ولا عجب أنه حتى الآن لم ير من تقبله زوجا. يعيش في غرفة ضمن بيت أسرته، لا يسمح لأحد أن يدخل غرفته لامن طرف الأسرة ولا من الأصدقاء ولم يسبق لي أن سمعت شخصاً قال: زرت رسول في بيته. وعندما أتحدث معه في هذا الأمر يقول: أهلي الذين لا يحترمونني، لا يحترمون أصدقائي أيضاً، لا أستطيع أن أقدم شيئاً لزائري. وإذا سئل أي شخص من أسرته أو من الحارة عن أحواله يقول دون تردد: رسول امتلأ بالعقد وغسلنا يدنا منه، وفي أحسن الأحوال يقول: رسول جن من كثرة قراءاته، لم يعد يستوعب ما قرأ ففقد صوابه، كان الله بعونه، أما هو فيقول عنهم: هؤلاء مجانين يعيشون في عصفورية، أرفض الانتماء

لهكذا مجتمع ناقص، لكنني مجبر، أعلم بأن هناك خطأ حدث بولادتي في هذا المكان الذي أعيش فيه غربة كاملة ولا يربطني أهله بأي انتماء.

جلس رسول بكآبة العالم في إحدى زوايا الغرفة متمتماً: سأجلس هنا ساعة وأنصرف. يبدو هزيلاً أكثر من أي وقت مضى، يتحول إلى هيكل عظمي، يتحدث ويرتجف بقوة، شعره مهوش وعيناه تبرقان في جزع. قلت: من أين أتيت؟ وحدقت في وجهه الذي علاه اصفرار حاد

ـ من الشوارع.. أشعر بتعب قاتل. وبدأ رأسه يهتز بعصبية

. ارتح يا أخي... لا أحد هنا.. الغرفة واسعة. وفي هذه اللحظة العصيبة وأنا أحدق فيه بكل ما لدي من قوة نظر خطرت لي فكرة أن رسول ملغوم بأفكار هامة، لكنه لا يقولها لأسباب خفية عني

ـ أشعر باختناق. قالها وهو يمد أصابعه إلى عروق حلقه: لا شيء يجدي.. أشعر بأناس يطوقونني طوال الوقت ويصوبون أسلحتهم إلي.

ليس ثمة أكثر من غمضة عين بينه وبين الموت، يبدو لي بأنه يموت الآن تذكرت أن أحد المسؤولين ذات مرة أجرى اتصالاً لتعيين رسول في إحدى الشركات،

وبالفعل دوام في الشركة، ولكن ليس أكثر من ستة أيام، وترك الوظيفة قائلاً: يريدون إرضائي ببصلة حتى أتناولها وأموت، أنا أسمى من أن أنتظر أول الشهر لأتناول هذه البصلة. وقيل إن قائد المسؤول علق على حادثة تركه للوظيفة قائلا: يريد أن يأكل ويشرب وينام ويلبس ويركب سيارة ويسكن فيلا دون أن يبذل جهداً، وأن نعينه على تحقيق هذا التطفل، بل ونوفر له خدماً وهو عاطل عن العمل. لقد فقد صوابه منذ أن ترك جامعته في سنة التخرج.

لم يسبق لي أن رأيته على هذا الاضطراب، فكل ما فيه ساخن ومستنفر، يشتم، يلعن، يبكي بحرقة.

قلت: رسول القضية ليست قضيتك وحدك حدد لنفسك هدفاً وسر به.. ومرة أخرى تذكرت قول صديق له ولي: رسول رجل فاشل. إذا كانت لديه أفكار لماذا لا ينشرها.. هو ليس الوحيد الذي أفكاره بحاجة إلى بذل جهود فردية لتصل. وقال مرة ملمحاً على هذه الناحية بحضوره في بيتي: الشجاع هو الذي يبدع في عالم فارغ ويتصدى بأفكاره الرصاص.. ويفرض خلود أفكاره. العظماء غزوا العالم بالأفكار.. لم يتمكن أحد من غزو العالم بالسلاح.. الآن العالم مغزو بالأفكار كما كان منذ الإنسان الأول.. والكتاب الأول.. والكلمة الأولى. عندئذ أحس رسول بتوجيه

الكلام إليه فقال بألم: آ.. يا ليتني أنجح في هذه المهمة رغم عدم قناعتي بها. هاهو رسول مرة أخرى يفتح هذا الجرح، ولا أعتقد أن أحداً في العالم يستقبله بحفاوتي، وأعترف بأنه رجل نظيف ونزيه، وصادق.. يدرك عمق الحياة.. إنه أستاذ كبير وكم أرجوه أن يكتب.. فكل إشكالاته ستحل إذا كتب ونشر، ومهما كانت كتاباته فسيجد من ينشرها له، إنه يقرأ فقط، يقرأ قراءة سلبية، أعني ما أعنيه بأنه قارئ سلبي، مثلما هو مواطن سلبي، مثلما هو فرد سلبي، مثلما هو مثقف سلبي بين شريحة المثقفين الذين لا يصوبون إليه غير نظرات شفقة. شعره الأبيض يتوقف، يصعد الصفار إلى وجهه النوراني المضيء، هذا الوجه الذي هو علامة على نقائه الروحي. يكفيه تسكعه في الشوارع وإدانته للواقع بكل أشكاله وألوانه والنظر إلى الآخرين بعين الازدراء والشفقة. فجأة نهض من زاويته: سذجٌ.. سذجٌ.. يا للعار.

قالها ودنا من الباب.. أمسكت به: ابق هنا.. أين ستذهب.. ارتح أنت منهار.. أجلس.. سنشرب حتى الصباح وعندها نشرب قهوة ونخرج.

قال ببؤس: لقد مللت الشرب والشتائم.. يا للهول. قلت وأنا ما أزال أمسك به: لكنها لحظاتك المنعشة الوحيدة لتي تكون رائقاً فيها... عندما تكثر في الشرب ويفلت لسانك.

قال: صدقني لقد حدث ذلك كثيراً إلى درجة أنه بات مبعث قرف لكثرة تكراره اللامجدي، أنا أبحث عن شيء آخر.. شيء غير موجود في هذا العالم الفارغ. ثم صوب إلي نظرة كبرياء وكأنه يصوبها لطفل رضيع: لقد شاهدت كل شيء ولكنني لم أجد ما أبحث عنه هنا، منذ خمسين سنة وأنا في التفاصيل التي لم تزدني إلا قناعة بضرورة الخروج من هذا السجن الذي بات أصغر من أن أستطيع تحمّل البقاء بين جدرانه الخانقة. عندما كنت في عمرك، كنت أقنع نفسي بأن هناك أشياء جديدة سأكتشفها ولذلك علي احتمال حتى الإهانة في سبيل ذاك الاكتشاف، يبدو لي بأنني عشت حياة البشرية الفانية كلها، لقد جئت لألخص كل ذاك الفراغ وأعيشه وأكتشفه.. لن أخسر شيئاً إذا أشرقت الشمس غدا ولم أرها، كم من صباحات مضت ولم أرها، لن أتسكع مرة أخرى في شوارع هذه المدينة ولن أرى نظرات الشفقة التي تتصوب إلي وكأنني متسول أتسول الحياة. لسوف أسير نحو جنازتي مسروراً.. لن ترك رسالة.. لن أترك وصية.. لا تخرج خلفي، لا تودعني،

أرغب ألا يودعني أحد. وخرج بكآبة ويأس العالم.. أغلقت الباب واستلقيت على سريري.. صحوت في السابعة صباحاً وتذكرت ما حدث معي ليلة البارحة ظننتني كنت في حلم، هل كان رسول هنا؟ لا شيء يشير إلى وجوده ليلة البارحة. ارتديت ثيابي وخرجت إلى عملي في السابعة والنصف. في منتصف الطريق لفت نظري تجمع لموظفي وموظفات الدوائر الحكومية، وبعض الناس الذين يذهبون إلى أعمالهم حول ساحة الإعدام في المدينة، الساحة التي تشنق الحكومة فيها من تراه يستحق.. وقد سبق لي أن شاهدت أناساً معلقين من رقابهم وقد مالت رؤوسهم في هذه الساحة. دنوت من الحشد.. بدا الرعب يتطاير من وجوه الناس: من المشنوق؟.

سألت في سري.. وفجأة وقعت نظراتي على "رسول" أجل.. رسول.. وكأنه لم يكن معي قبل ساعات.. كان معلقاً من رقبته في ذات المكان الذي علق فيه الذين صدرت بحقهم هذه الأحكام وكنت أراهم صباحاً لدى ذهابي إلى العمل.. لم يكن بثياب الإعدام.. وبسهولة يميز الناظر إليه بأنه هو الذي شنق نفسه.. لم أسمع سوى عبارة واحدة محيرة تتطاير على ألسنة الحضور: "لكن لماذا هنا؟!"

بعد قليل وقفت سيارات أنيقة.. نزل منها أشخاص.. ابتعد الجمع إثر تدخل أشخاص بقبعات.. ودنوا من "المعلق".

اقتربوا منه.. أشاروا بأصابعهم، تم أخذ صور سريعة له. وبعد دقائق تقدم شخصان من ذوي القبعات.. فكا الحبل، وحملاه إلى سيارة.. تفرق الجمع في الاتجاهات والوجوه تحمل السؤال المحير ذاته: "ولكن لماذا هنا بالضبط".

&&

(ب)

رجال ونساء

منذ شهر يلح مكري، صاحب محل لبيع الخضار بالجملة على صديق طفولته زهران، الموظف في مديرية التموين ليلبي دعوته العائلية على العشاء. حدث هذا عندما راح زهران إلى سوق الخضار لشراء كيس من البصل اليابس بعد أن كررت زوجته سوسنة، الموظفة في مكتب الكاتب بالعدل مطلبها المنزلي هذا عليه خمس مرات خلال خمسة أيام متتالية. وفي كل مرة يعود بعد انتهاء الدوام إلى البيت منهكاً وقد نسي أمر البصل، وعندما تنفعل سوسنة وتمتنع من تقديم الغذاء له يداعبها ببسمة مصطنعة قائلاً وقد وضع فمه على خدها طابعاً قبلة باردة: يا سوسنتي،

المشكلة أنكِ لا تذهبين عن بالي لحظة واحدة ليحل البصل المسكين في بالي. فتبتسم وتدعوه إلى الغداء قائلة بدلال: ما عاش البصل اللي يزيح سوسنة عن بالك ليحل مكانها. لكنها بعد الغذاء وفي أثناء تناول الشاي تعود فتذكره بكيس البصل قائلة: يا رجل، منذ شهر وأنا أشتهي الشامبورك ولكن لا توجد بصلة واحدة في البيت، هل هناك بيت في العالم يبقى بدون بصل لشهر كامل.

في الليل لبثت سوسنة مستيقظة تبحث عن فكرة تجعله يتذكر البصل وبنفس الوقت تبقى هي في باله وقد وصلت إلى الفكرة عن الساعة الثالثة والنصف صباحاً، وحتى لا تنساها قامت من فراشها ودونتها على قصاصة صغيرة وعادت إلى الفراش غارقة في النوم لم تستيقظ إلا على أصوات أولادها وهم يوقظونها لتذهب إلى وظيفتها ويهمون بالخروج إلى مدارسهم. نظرت إلى الساعة وكانت قد تجاوزت السابعة والنصف بقليل. سألت عن أبيهم فقالوا بأنه خرج إلى وظيفته، وللتو تذكرت أنها سهرت إلى وقت متأخر وتذكرت الفكرة التي دونتها على القصاصة من أجل كيس البصل. خرج الأولاد ونهضت مسرعة، تمتمت لنفسها بأنها ستفطر في المكتب الفطائر الساخنة مع الشاي، سترسل المستخدم عمري إلى المخبز وعندما يعود تعطيه

فطيرتين قائلة لـه: خذ يا عُمري متقصدة أن تضمم العين المفتوحة حتى يبتسم عمري وهو يقول: شكراً يا مدام، متناولاً الفطيرتين من يدها ويذهب ليحضر لها أبريق الشاي. خرجت سوسنة إلى الشارع وهي تعرف بأنها تأخرت عن موعد وصول الباص الذي يأخذها إلى مديرية التموين بدلاً عن قصر العدل، فهي مصرة أن يجلب زهران البصل وقد حملت الفكرة التي توصلت إليها في حقيبتها. دخلت عليه في مكتبه ولم يكن غيره في المكتب فقال: ما أتى بك يا سوسنة.. خير!!

مدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت لصقة جروح كتبت عليها /بصل/ وسحبت إبهامه الأيسر، لم تفسح له مجالاً غير أن يستجيب وهي تلصق اللصقة على إبهامه وتهم بالخروج لأنها تأخرت عن وظيفتها. عند ذاك قال: اللصقة تكفي لأتذكر، سوف أشطب كلمة /بصل/ قالت: لا يا حبيبي، حتى لا يكون هناك وقت تتذكر ولو لحظة واحدة عن سبب وضع هذه اللصقة، عندما تنظر ستقرأ ولا تحتاج إلى تفكير. فقال: يا لك من امرأة ذكية يا غاليتي، ودنا إليها ليأخذ قبلة، لكنها خرجت وهي تقول: نحن في دائرة حكومية يا رجل، ألا بيت لدينا.

عند الساعة الثانية خرج زهران من الدائرة واضعاً يده في جيبه حتى لا يرى أحد كلمة /بصل/ المكتوبة على اللصقة واتجه على الفور إلى محل لبيع البصل بالجملة، وعندما توقف أمام المحل وأدرك بأنه لن ينسى أن يشتري البصل خلع اللصقة، جعلها مثل حبة عدس وقذفها.

نظر إلى أكياس البصل المتراكمة على بعضها نظرة سريعة وقد أعجبه شكلها، ألقى نظرة إلى صاحب المحل الذي يقف أمام /قبان/ حديدي ضخم يزن بعض الأكياس لأشخاص يقفون جواره وقد وضع خلف أذنه قلم رصاص. وكالوميض تذكر بأنه لابد يعرف هذا الرجل. هذه الملامح قريبة إليه، وحتى الصوت مازال محافظاً على بعض نبراته. لكنه تجاهل ذلك ومد يده يتلمس حبات البصل الحمراء الصغيرة في إحدى الأكياس /لمسة شراء/ كما يقول البائعون وليس لمسة تضييع وقت. وعند ذاك دنا إليه صاحب المحل وقد فرغ من الرجلين قائلاً وهو يمعن النظر إليه: عفواً أستاذ، هل لي أن أعرف اسمك بلا صغرة.

بادله زهران النظر وعاد يتذكر بأنه لابد يعرف هذا الشخص وأجاب، نعم، ولكن لم تسأل؟

قال الرجل: لأن هذه الملامح تذكرني باسم يعود إلى ثلاثين سنة ماضية.

فتأكد زهران بأنه كان يعرف هذا الشخص حقاً، بيد أنه قد نسي التفاصيل، وأصبحت لديه رغبة في أن يتذكر ذاك الماضي الذي قد نسيه، أو يذكره به هذا الشخص، وقبل أن يحدث ذلك أشرق ذاك الماضي في ذاكرته في لحظة وهو ينظر في الشخص، ثم ما لبث أن صافحه قائلاً: هو أنا يا صديقي، ألست مُكري الذي كان يأتي إلى بيت خاله شهاب الدين في حارتنا منذ ثلاثين سنة؟! ومن جديد تباوسا ودعاه مُكري للجلوس في المحل محتفياً به إلى درجة أنه أشار لزبون أن يذهب إلى المحل المجاور لشراء البصل لأنه مشغول. رفع سماعة الهاتف وطلب ركوة قهوة، ثم قال: القهوة وحدها لا تكفي.. ستأتي معي إلى الغداء.

قال زهران وهو يشكره معتذراً لأن الأولاد ينتظرونه ولن يتناولوا شيئاً قبل أن يكون معهم على مائدة الغذاء. عندها قال مكري: ما شاء الله يا صديقي.. وكم ولد لديك؟

أجاب زهران: ثلاثة أولاد.

قال مكري: رغم هذا فإنني لن أتركك قبل أن تعدني بأنك ستقبل دعوتي لك وللمدام على العشاء في أقرب وقت.

قال زهران: أعدك يا صديقي بأننا سنلبي هذه الدعوة.

قال مكري: لكن لم تقل لي أين أصبحت الآن، ما هو عملك؟

قال: موظف في مديرية التموين.

عندها قال مكري: أنا تزوجت متأخراً.. لا أولاد لدي لكن زوجتي حامل في الشهر السادس، ودوما أقول لنفسي: ليتني بقيت عازباً.

قال زهران بدهشة: لم تقول ذلك يا صديقي.. ألست سعيداً في زواجك؟

ـ سعيد،، وأطلق ضحكة ساخرة،، سعيد،، وهل يوجد على وجه الأرض رجل سعيد مع امرأة.

ـ ضحك زهران محاولاً أن يخفف عن صديقه قائلاً بشيء من السخرية: اسمح لي أن أدافع عن المرأة يا صديقي وأقول: هل توجد امرأة على وجه الأرض سعيدة مع رجل.

التفت إليه مُكري هازاً رأسه علامة بالاستغراب: وما تقصد يا زهران؟

قال بسرعة: أقصد، هل الإنسان سعيد ومنسجم كل الانسجام مع نفسه حتى يكون سعيداً ومنسجماً مع غيره. من قال لك يا صديقي بأن الحياة لا تستمر بين الزوجين إلا إذا كانا سعيدين ومنسجمين.. حتى اللحظة الأخيرة يبقى

الزوجان يتعرفان على طباع وخصال جديدة في بعضهما، أتعرف لماذا؟

قال زهران وهو يصغي إلى صديقه: لماذا؟

قال: لأنه حتى اللحظة الأخيرة يبقى الإنسان يكتشف في نفسه طباعاً وخصالاً جديدة لم يكن يعرفها في نفسه من قبل.

قال مكري: المشكلة أن زوجتي تتدخل في كل شيء وتفسده علي تتدخل حتى في حلاقة ذقني، تصور أنها تقول: أنت ذاهب إلى سوق الخضار يا مُكري... لمن ستحلق ذقنك، أم أنك تحلقه لأكياس البصل. وعندما أطلب منها أن تلمّع حذائي، تقول: هل أنت مدير دائرة، يا رجل أنت ذاهب إلى سوق الخضار المليء بالوحول. حتى أنها فرضت علي أن أتوقف عن صبغة شعري، تقول: كنت تصبغ شعرك لتبدو فتياً حتى تتزوج، الآن وقد أكرمك الله بزوجة مثلي، لم تصبغ شعرك، هذا بدل أن تفكر بالبيت وبمستقبل الأولاد الذين سيأتون. إذ كان شعرك أبيضاً أو أسوداً ما الذي سيتغير بك، أم أن هناك من تصبغ شعرك لها لتراك صبياً. أقسم لك يا صديقي لو أنها رأت وسيلة صغيرة لرفعت الهاتف من المحل، ولا أخفيك بأنني أفكر أن أرفعه لأنه أصبح مصدر إزعاج لي، بين ساعة وأخرى

تجري اتصالاً لتتأكد بأنني في المحل، وإن كان الهاتف مشغولاً لبضع دقائق في تلك الليلة نتشاجر حتى تطلع الشمس. ألم أقل لك بأن أكبر خطأ ارتكبته في حياتي هو أنني تزوجت.

قال زهران: لست أنت الوحيدة يا صديقي، كلنا سواء، لقد مضى الوقت وأعدك بأننا عندما نأتي لدعوتك سوف نتحدث في هذا الأمر.

أدرك مكري بأنه يود الذهاب فنهض وأومأ لبيكاب أجرة كان يقف بالقرب من المحل وطلب من السائق أن يحمل كيساً من البصل ويضعه في صندوق البيكاب. وعندما فعل همس للسائق ألا يأخذ من الأستاذ الأجرة وعندما يعود سوف يعطيه. والتفت إلى صديقه قائلا: والله لو لا انتظار الأولاد لك لما تركتك في هذا الوقت قبل أن نتغذى معاً.

ودعاه ليركب السيارة. فمد زهران يده إلى جيبه، بيد أن صديقه سارع في دفع يده ومنعها من الخروج من الجيب وهو يقول: يا رجل منذ ثلاثين سنة لم نلتق وتريد أن تدفع قيمة كيس بصل، يا عيب الشوم.

لكن زهران بدا أكثر إصرارا على الدفع قائلاً بحسم: والله يا مكري إن لم تأخذ لن أركب السيارة. عندها فقط مد مكري يده وهو يسحب ورقة نقدية من فئة صغيرة لا تساوي

إلا أقل من نصف قيمة كيس البصل وأقسم بأنه لن يأخذ غيرها. فشكره زهران ومرة أخرى تباوساً على أمل اليوم الموعود.

بعد عشرة أيام اتصل مكري بصديقه مذكراً إياه بالدعوة فقال زهران بأن أشغاله المتراكمة لم تسمح له خلال الأيام الماضية، ولكن لابد أنه سوف يرى أمسية قريبة سيطرق فيها بابه. ومضى أسبوعان فعاد مكري واتصل به هذه المرة في الدائرة مذكراً إياه بالعزيمة وعندها اتفقا على هذا الموعد المناسب.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساء عندما خرج زهران وزوجته سوسنة من البيت واتجها إلى بيت مكري الذي كان على أهبة الاستعداد مع زوجته لاستقبالهما. اتجها إلى سوق المدينة واختارا هدية لهذه المناسبة وكانت عبارة عن مزهرية ولوحة. عند السابعة والنصف كانا يطرقان باب مكري الذي استقبلهما بحفاوة مع زوجته سهدية وقد تباوست الزوجتان وكأنهما على علاقة متينة مع بعضهما البعض. تحلقوا جميعاً حول مائدة العشاء العامرة بالطعام والشراب وبعد ذلك قالت سهدية بأنها تريد أن تري صديقتها ألبوم الصور، وكانت فرصة ليختلي زهران بصديقه ويكمل له حديثهما السابق في المحل. عندئذ قال

مكري: كنت أريد أن أقول لك وقد نسيت: هل زوجتك أيضاً تتدخل وتفسد عليك حياتك؟

قال زهران: يا أخي إنهن من نفس الطينة، لكن لي فلسفتي الخاصة التي تجعلني أتجنب معها الانفعال، أو لأقل أتجنب معها تبادل الحديث العميق. وأقول لنفسي: لتقل ما تقل يا زهران.. عقلهن صغير.

قال مكري: ما الذي تقوله يا زهران

قال: كما تسمع يا مكري، إن أردت أن تكون هادئاً في بيتك لا تناقشها ودع لها الحبل على الغارب في الحديث، لتقل ما تشاء وسترى بأن كل شيء سينتهي على خير. هناك أشياء يا صديقي تستمد اكتمالها من مقدار الاعوجاج الذي بها وتكون ناقصة كلما نقص الاعوجاج، أصغ إلي جيداً، أما عندما تأتي وتريد أن تعدل ذاك الاعوجاج فيها ستخرجها عن كمالها وسوف تراها تتحطم بين يديك أو كما يقول المثل بأنه أعماها وقد جاء ليكحلها. ألا يأخذ الهلال كماله من مقدار ما به من اعوجاج، إنه يبدو مكتملاً وجميلاً وهو مقوس أكثر مما لو كان مستقيماً، وإذا أردت أن تجعله مستقيماً ألا تخرجه عن جماليته وخصوصيته الهلالية. ومد يده إلى أذن صديقه مداعباً إياه: تذكر دوماً

ما أسداه لك صديقك زهران من نصح وسوف ينتهي كل شجار على خير.

عادت الزوجتان تحملان طبقاً من الفاكهة فاجتمعوا مرة أخرى على سفرة الفاكهة فقالت سهدية لزوجها: ليتك تتعلم يا مكري من زهران منذ ساعة وسوسنة تمدح لي بعقله الكبير، تقول لي: إن ما يميز زوجي من بين كل رجال العالم هو عقله الكبير، ودوماً أقول لنفسي: كم أنت محظوظة يا سوسنة بعقل زوجك الكبير. أما أنت يا مكري كأنك تنتظر مني كلمة لتستفزني وتفسد علي يومي.

قال مكري وقد انتفض واقفاً على قدميه: أنا أفسد عليك أيامكَ أم أنت التي أفسدت علي كل حياتي.

وقالت سهدية متجهة كلامها للضيفين: هذا الرجل الذي يقف أمامكما يسبب لي آلاماً لم أعد أحتملها، إنه يخطئ ويريد أن أبارك له هذا الخطأ، أحياناً يتصرف كما لو أنه طفل صغير فأقول لنفسي: هل تزوجت طفلاً أم تزوجت رجلاً متزناً.

فقال مكري وقد تصاعد الانفعال إلى سحنته وصوته معاً: أنا طفل يا ناقصة العقل.

نهضت الزوجة واقفة على قدميها وقالت بانفعال: ما شاء الله.. إنها عبارة جديدة/ ناقصة العقل/ ومن علمك إياها.. أنا ناقصة عقل يا ناقص العقل.

عندها تدخل زهران مهدئاً صديقه: يا مكري تذكر..

صوبت سهدية نظرة إليه قائلة: وأي شيء يتذكر.

استدرك زهران نفسه وقال: يتذكر بأنه يحبك وأنك أثمن شيء لديه في العالم، عندها سيقع صوتكَ على أذنه أرق من صوب العندليب. وعاد ملتفتاً إلى صديقه قائلاً له: مشكلتك يا مكري أنك لا تتذكر.

وأردفت سهدية: أجل إنه الرجل الحق الذي تهنأ به زوجته، والتفتت إلى سوسنة قائلة لها: هنيئاً لك يا أختي بهذا الرجل الذي دوما يتذكر ولا ينسى.

قال مكري: لقد أفسدت علي حتى جلوسي مع ضيفَي.

قالت: مادمت مصراً على عنادك، يكفي، أجل يكفي لن نعيش معاً بعد الآن، طلقني في هذه اللحظة، أنا لست زوجتك وأنت لست زوجي لتكن كلباً إن لم تطلقني في هذه اللحظة.

فقال مكري بانفعال: أجل لأكن كلباً إن لم أطلقك في هذه اللحظة يا سهدية، أنت طالق، لست زوجتي ولست زوجك بعد هذه اللحظة.

عندها خرجت سهدية من البيت متجهة إلى بيت أهلها فنظر زهران إلى صديقه وقال: هذه هي مشكلتك الوحيدة يا صديقي، أنك تنسى أن تتذكر. ثم أمسك بيد زوجته وخرجا، فقالت له زوجته وهي تتأبط ذراعه: هنيئاً لي بعقلك الكبير يا زوجي، إني لأرجو أن يحفظ لك الله عقلك الكبير هذا.

بعد ثلاثة أسابيع اتصل مكري بصديقه وقال بأنه سيزوره في البيت مساء لأمر غاية في لأهمية، حضر إليه مساء وهو في حال يرثى لها، رفض أن يتناول أي شيء وهو يقول: لم أكن أعلم بأنها ستترك كل هذا الفراغ في البيت، سوف تقتلني الوحدة يا صديقي، أرجوك أن تأتي معي إلى مفتي لعله يرى لي فتوى تعيد زوجتي إلي لأنني لم أكن في تمام قواي العقلية حينذاك.. أجل لقد كنت ناقص عقل.

ഌഌ

نظرات لا تموت

/لماذا تنظر إلي؟/ قالها مزكين منذ سنتين للرجل الأربعيني الذي حدجه بنظرة أحس بثقلها على روحه، لكن الرجل لم يرفع عينيه عن مزكين الذي هرول إلى عمله تحت سياطها صوب الزاوية التي وضع أبوه فيها براكية صغيرة منذ عشرين سنة واتخذها مقراً لبيع الشاي والقهوة والزهورات، وفيما بعد تسببت في ترك مزكين للمدرسة وهو ما يزال في المرحلة الابتدائية حتى يوفر لأبيه أجر الشغيل الذي يقوم بأخذ الطلبات إلى المحال بواسطة / بسكليت/، ومن جهة أخرى رغب أبوه أن يبقى مزكين تحت أنظاره وبالقرب من أنفاسه حتى يخفف عنه الضجر الذي يجتاحه في ساعات العمل الطويلة والمرهقة التي تبدأ من الخامسة صباحاً ولا تنتهي قبل التاسعة ليلاً دون أي يوم عطلة.

منذ ثلاث سنوات جاء مزكين ليتفرغ لهذا العمل تاركاً المدرسة بناء على طلب أبيه الذي قال له: يا بني والله ما عدت قادراً على دفع أجر الشغيل، تعال معي حتى تتعرف بالزبائن ويتآلفوا معك، هذه الزاوية هي مستقبلك يا بني كما كانت مستقبل أبيك، يقول المثل: مطرح ما ترزق إلزق، وهذا هو رزقنا الذي نعيش منه بعز يا بني.

رغم أنه كان إذ ذاك في الثانية عشرة من عمره أحس بمسؤولية كبيرة في إعالة أسرة مكونة من ست أخوات وأب وأم وهو الأخ الوحيد الذي سوف يعيلهم عندما يتقاعد أبوه.

لأول مرة تسربت منه نظرة إلى يدي أبيه فلمح التشققات على الكفين بسبب البقاء المستمر في الماء لغسل الكاسات والأباريق، وبدأ يتخيل كيف أن هذا الرجل الذي تجاوز الخمسين من عمره يقف كل تلك الساعات الطويلة على قدميه يغسل الكاسات والفناجين والأباريق ويجهز الطلبات للصبي الذي ينقلها إلى المحال التي تطلب بواسطة الهاتف وهو لا يكف عن رفع السماعة قائلاً: أمرك... أمرك.. أمرك.

كل هذا من أجل أن يعود إلى البيت حاملاً الطعام لأسرته، وحتى يستطيع أن يمد يده إلى جيبه ويعطي لكل طالب حاجة حاجته في هذا البيت.

في صبيحة اليوم التالي على ذاك الطلب نهض مزكين صباحاً واتجه ويده بيد أبيه إلى تلك الزاوية التي كان في مرات نادرة يتردد إليها مع مه أو إحدى أخواته عندما كانا ينزلان إلى السوق لشراء حاجة عندها اكتشف الأب بأنه لا يؤدي مهمة الشغيل فقط، بل إنه الابن الذي يعمل مع أبيه من أجل بيت واحد، فيراه كيف يهرع لمنعه من الغسيل، وكيف يضع له الكرسي في شمس الصباح الدافئة، يصنع له فنجان قهوة ويدعوه للجلوس، وعندما يرن الهاتف يهرع ليرد عليه، يجهز الطلب ويأخذه إلى الزبون مشياً إذا كان مجاوراً، وإذا كان بعيداً يأخذه بالبسكليت، وفي العودة يجلب بطريقه الأباريق والركوات الفارغة.

يجلس الأب عزيزاً على كرسيه يحتسي قهوته ويدخن سيجارته، ويجالس بعض الزبائن ويتحادث معهم، ومع مرور الأيام بدأ يكتشف طفولته لأول مرة في ملامح وتحركات ابنه، وبدأ يشعر بمودة خاصة له ليس لأنه الوحيد على ست بنات، بل لأنه بات يراه ينمو يوماً بعد يوم أمام عينيه. أحياناً يقف ويتأمله ويتخيل سنوات مراهقته فيه، هاهي شعرات خفيفة تظهر لأول مرة على وجهه، هاهو صوته يغلظ شيئاً فشيئاً، هاهي حبات تظهر على وجهه،

وهاهي نظرات تتسرب منه خلسة إلى صبايا جميلات في سنه يمرقن في الشارع.

ويبدأ يحكي أسرار ووقائع حياته كما لو أنه صديق حميم له، فغدا مزكين يعرف أسرار ووقائع حياة أبيه العميقة، وهو الذي لا أسرار ولا أحداث ولا تجارب في حياته، وكما يقول له أبوه بأنه يشبه الطير الذي تنمو جناحاه للتو ليطير بهما ويحلق في الفضاءات الرحبة ويكتشف لذة الطيران والتحليق.

ولم يملك مزكين إلا أن يتمتم لنفسه: هل كلما يكبر الإنسان يتحول إلى حقل أوسع للتجارب. وتخيل حجم التجارب والأحداث والوقائع التي تنتظره في مسيرة حياته التي ينفتح عليها للتو.

ومع هذا النشاط والقبول من أصحاب المحلات الذين يثنون عليه ويمنحونه الإكراميات غدا أبوه أكثر إصراراً لبقاء ابنه بالقرب من أنفاسه متمتماً في سره: /مزكيني الذي رزقني الله به بعد ست بنات، وهذا أفضل عطاء منحه الله لي، حتى لو رحلت سيبقى يحمي أخواته وأمه/.

حتى أن أصحاب المحلات الذين يترددون أحياناً إلى البراكية، أو يتصلون بالهاتف يقولون له: /والله يا سيد ريزان

طلع الصبي عليك من ناحية البشاشة والشطارة، الله يخليه لك:

وصل مزكين إلى البراكية والتفت إلى الرجل الذي مضى بجانبه مكملاً في الشارع الطويل.

استطاع مزكين أن ينسى تلك النظرات، وذاك الرجل، ولكن بعد عشرة أيام عاد كل شيء إلى ذاكرته عندما فوجئ به يجلس في نوفوتيه /الفصول/ وهو داخل يحمل إبريق شاي، فوجئ مزكين به وتناولته نوبة حادة من الغثيان بغتة، والرجل يحدجه بذات النظرات التي أربكته وجعلته يشعر بالإنهاك تحت ثقل إبريق الشاي الذي يحمله، فنهض الرجل ذاته وتناول من يديه الراجفتين إبريق الشاي وهو يحدجه بذات النظرة متمتماً: /يسلموا هالإيدين/.

فأدار مزين ظهره بارتباك وهرع إلى البيت دون أن يمر على أبيه.

بمضيء بعض الوقت بدأ الأب يتفقد ابنه الذي ليس من عادته أن يغيب دون أن يترك خبراً، وبدأ السيد ريزان في حالة اضطراب وهو يسأل عنه في المحلات البعيدة والقريبة دون أن يعثر له على خبر، وفجأة رن جرس الهاتف وشعر بشيء من الاطمئنان عندما أعلمته زوجته أن مزكين مرهق بعض الشيء وهو في البيت لم يتردد

السيد ريزان من إغلاق البراكية وركوب البسكليت والتوجه على جناح السرعة إلى البيت. كانت المرة الأولى التي رأى مزكين نفسه فيها مضطراً للاستعانة بالكذب ليجنب نفسه بعض الحساسية، وقال بأنه كان عائداً من /نوفوتيه/ الفصول وفجأة أحس بدوار فلم يملك إلا أن يعود إلى البيت بواسطة دراجة نارية ذات دولابين. ورأى الأب أن يبقى إلى جانب ابنه رغم أن الوقت ما يزال عصراً وأن المحلات سوف تستفقده، فهو لم يسبق له أن أغلق البراكية إلا أيام الأعياد فقط، وحتى في الحالات الطارئة التي كان يضطر فيها للغياب كان يوصي الشغيل بأن يفتح البراكية حتى لا يخسر زبائنه.

من جانبه فقد تحول ذاك الرجل إلى شبح لا يفارق ذاكرة مزكين، رغم أنه لم يره غير مرتين. رجل رفيع طويل القامة، ذو عينين زرقاوين على وجه أحمر، يرتدي بدلة كاكية، يمشي وهو يعقد كفيه خلف ظهره، شعره ليس أسود فاحماً لكنه مع سواده يميل إلى اللون البني، لا يظهر أي أثر للبياض على فوديه، أما نبرته التي سمعها لأول مرة في /النوفوتيه/ فهي ناعمة وهادئة بعض الشيء كأنها تخرج من حنجرة رجل به داء. لكنه رغم كل المحاولات يعجز عن تفسير تلك النظرات التي يصوبها إليه، تلك النظرات التي

توشك أن تقول له شيئاً بيد أنه يتهرب غير راغب لسماعها، ولذلك يشعر بثقلها على روحه ويريد أن تبقى غامضة ومبهمة دون أن تفسح عن مضمونها بالنسبة إليه. إنه الآن لا يريد أي شيء من العالم غير أن يتركه هذا الرجل بحاله حتى يعود إلى عمله الذي أمضى فيه ثلاث سنوات كانت من أمتع سنوات حياته وهو يشعر بقوة ومسؤولية الرجولة تتدفع إليه يوماً بعد يوم دون أن تبلبله تلك النظرات التي غدا يحسب لها حساباً أكثر من أي شيء آخر.

بعد غياب أربعة أيام متتالية رأى مزكين بأنه يستطيع أن يذهب إلى عمله، فعند الساعة العاشرة من صبيحة يوم الأربعاء قال لأمه بأنه سوف يذهب إلى البراكية لأنه ضجر البيت. ومن ناحية أخرى كان يتخيل والده وهو يقوم بتوزيع الطلبات إلى المحلات القريبة والبعيدة إضافة إلى العمل المستمر داخل البراكية، ويبدو الإرهاق واضحاً عليه عندما يعود وعلى الفور يتجه إلى الفراش لينام دون أن يستطيع أن يجلس مع عائلته ولو نصف ساعة، حتى أن كل من في البيت يوحي بالنظر إلى مزكين بأنه يستطيع أن يخفف عنه بعض الإرهاق خاصة وأنه معافى ولا تظهر عليه أي بوادر مرض. لم يستطع السيد ريزان أن يخفي علائم الفرح التي بدت على محياه وهو يرى ابنه وقد دخل البراكية فجأة وراح

يقبل يديه داعياً إياه أن يجلس على كرسي أمام واجهة البراكية مع بعض الزبائن الذين يجلسون ويحتسون الشاي ويدخنون ويتأملون حركة الناس في قلب السوق المكتظ بالناس وأبواب المحلات.

وفجأة تناهت أصوات من هؤلاء: الحمد لله على السلامة سيد مزكين، سمعنا كنت بعافية.

وهي العبارة ذاتها التي بدت تنهال عليه من أصحاب المحلات أيضاً، فلم يجد مرة أخرى غير أن يستعين بالكذب بأنه كان مريضاً بعض الشيء وكان بحاجة إلى راحة.

مضت عشرة أيام كاد مزكين فيها أن ينسى ما حدث له، لكن الرجل عاد وأفسد عليه كل حالة الهدوء التي ينعم بها عندما فوجئ به داخل السرببس في الساعة التاسعة ليلاً حينما كان عائداً مع أبيه إلى البيت، ومن جديد تسلطت عليه تلك النظرات دون أن تتركه لحظة واحدة، أحس بضيق في التنفس وأنه سوف يختنق إذا لبث تحت شعاع هذه النظرات التي بدت ملتصقة به، تخيل بأنه ينقض كالنسر ويمد إصبعين يفقأ بهما عينيه وفي أثناء ذلك رغب بقوة أن ينفجر: /لكن لماذا تنظر إلي/؟! وأحس بأن الصوت خذله كما أن يده خذلته، وبالكاد تمكن من أن

يستدير إلى السائق ويطلب إليه الوقوف حالاً وسط دهشة الركاب بما فيهم ذاك الرجل ووالده.

وما إن وقف السرفيس حتى نزل مزكين ولحقه أبوه في النزول، ثم لحقهما ذات الرجل قائلاً لأبيه: نزلت خصيصاً حتى أساعدك إن كنت بحاجة إلى مساعدة، يبدو أن ابنك متعب. فشكره السيد ريزان بحرارة، ثم أردف الرجل: يا سيدي أنت لا تعرفني، لكن لا يوجد أحد في هذه المدينة لم يشرب من شايك الطيب، عندما رأيت حال ابنك قلت بأنني سأنزل علك تحتاجني في شيء يا أبا مزكين. فعاد السيد ريزان يتشكره بحرارة بالغة على عرضه هذا. كان الرجل يتحدث وأنظاره لا تنزاح طرفة عين عن ريزان الذي شعر بأن هذا اليوم هو اليوم الأخير في حياته، وأن هناك من أرسل هذا الرجل لينهي حياته بهذا الحرق في أعصابه، فلم يملك من أمره غير أن يتجه صوب البيت ويجري بكل ما في جسده من قوة، وعندما وصل البيت، جلس يسترد أنفاسه كأنه خرج لتوه من بئر، ثم بعد لحظات بدأ يتقيأ ويضغط على بطنه وسط حالات تقيؤ شديدة ومتلاحقة وقد احمرت عيناه بشكل مفزع، اتصلت إحدى أخواته بالإسعاف، ولكن قبل وصول الإسعاف دخل أبوه لاهثاً مع ذات الرجل، وعندها لم يملك مزكين غير أن يغمض عينيه ويسد أذنيه

ويستعين بكل حواسه بأنه نائم ولا أحد في البيت غيره. بعد قليل فتح عينيه عندما أحس بالأيدي تحمله فلم ير ذاك الرجل، عند ذاك أحس بنسمة منعشة سرت في عروقه وقال بأنه يشعر بتحسن ولا يريد أن يذهب إلى المشفى، فعادت سيارة

الإسعاف فارغة من حيث أتت. في صبيحة اليوم التالي قرر أن يواجه الأمر وينزل إلى عمله لأنه أيقن بأن بقاءه لشهر متواصل في البيت لا يفيد بشيء لأنه سوف يعود في النهاية إلى مواجهة هذا الرجل الذي قد يطرق في أي لحظة الباب ويدخل بحجة أنه يريد الاطمئنان عليه.غدا يراه في أماكن متفرقة وفي أيام متفرقة وتنهال عليه تلك النظرات المرعبة فيهرب منها قائلاً للرجل: /لكن لماذا تصوب إلي كل نظراتك أينما رأيتني/؟! وبذات الوقت فإنه لا يريد أن يسمع الإجابة فيهرع تحت سياط تلك النظرات إلى أن تقع عليه مرة أخرى. وصار هاجسه الوحيد أن يعثر على مثل تلك النظرات الغرائبية في عيني شخص آخر دون أن يجد فيتساءل في قرارة نفسه: ما الذي يريده مني ذاك الرجل وهو يلاحقني من مكان إلى مكان حتى أنه ذات مرة تشجع وقال له في الشارع: لماذا تنظر إلي، أريد أن تجيب، سوف أستمع إليك. بدت الدهشة واضحة على

سحنة الرجل أمام عيني مزكين وبعد لحظات من الارتباك والصمت قال: أنا أيضاً أسأل نفسي هذا السؤال أكثر منك، لقد أفسدت علي حياتي، أنت لا تعرف مدى معاناتي اليومية حتى آتي وأنظر إليك، واليوم الذي لا أنظر فيه إليك لا أتذوق لحظة نوم واحدة. ثم انحدرت دموع من عينيه ومضى.

في اليوم التالي رآه مزكين يدنو إلى البراكية ولأول مرة يجلس على كرسي في الواجهة ويطلب فنجان قهوة، قدم إليه مزكين ركوة القهوة وبدأ يصبها في الفنجان والرجل ينظر إليه، ولبث مزكين واقفاً قبالته مقرراً أن يواجه مشكلته هذه وألا يهرب منها. صوّب مزكين نظرات إلى عينيه، تشابكت النظرات لأول مرة في حالة من الصمت والذهول، أحس مزكين بأنه يخرج جزئياً من كونه مزكين وتتلاحق أجزاؤه في أجزاء الرجل، حتى أحس بأنه يخرج نهائياً من الواقع الذي هو فيه ويدخل إلى واقع مختلف لم يكن له عهد به، ثم في لحظات أخرى من هذا الخروج أحس بأنه ربما كان قد رأى هذا الواقع في حلم بعيد. في هذه الأثناء لمح أبوه المشهد الغريب، مزكين يقف قبالة الرجل الجالس وقد تشابكت أنظارهما، وكان بعض الزبائن يشاركون الأب النظر بذهول في هذا المشهد، لكن الأب لم يحتمل أن

يترك ابنه في ذاك الموقف فدنا إليه ووضع يده على كتفه قائلاً وهو ينظر في الرجل: هذا أنا يا بني. عند ذاك أحس مزكين بأنه يخرج من ذاك العالم ويعود مرة أخرى إلى عالمه، وللتو أدرك الدموع الغزيرة التي كانت تنهمر من عينيه، وكذلك لمح ذات الدموع تنهمر من عيني الرجل الذي لم يلبث عند ذاك أن نهض واختفى.

اختفى الرجل هذه المرة أطول فترة عرفها مزكين مذ أن رآه وفي وقت لن ينساه وعند الساعة العاشرة والنصف صباحاً وبعد غياب ثلاثة شهور لمحه فركين قادماً من مدخل الشارع، كان المطر قد هطل بغزارة منذ الليلة الفائتة وتحول منذ الثامنة وحتى العاشرة صباحاً إلى ما يشبه الرذاذ الخفيف بعد أن غاصت الطرقات بالمياه الغزيرة. عند ذاك أخذ الرجل يسير على الرصيف القادم إلى البراكية ونظراته تتقدمه إلى وجه مزكين الذي بدا هادئاً ومستعداً للقاء هذا الرجل، وتقدم الرجل بشوق ومزكين يهيئ له كرسياً ليجلس عليه وقبل الوصول بعشرة أمتار غداً أمامه إما أن يترك الرصيف ويمشي في الطريق الغاص بالمياه الغزيرة أو يدخل الممر الضيق الذي واجهه بين الحائط وبين العمود الكهربائي الحديدي الضخم، ولمحه مزكين يدخل الممر على جنب وما تزال أنظارهما تتشابك، وفي أثناء ذلك

لامس كفه طرفاً من العمود الكهربائي الذي كان به ماس من جراء الرطوبة فانتفض الرجل كبركان، ثم بعد لحظات سقط جسداً فاحماً وسط المياه المتراكمة على الطريق كأنه لم يكن ذاك الذي يحمي نفسه من قطرات المطر قبل لحظات، لم يصدق مزكين عينيه، أو لم يكن يرغب في أن يصدق ما رأى في هذه البغتة الخاطفة، لكنه رأى أصحاب المحلات المجاورة يخرجون من محلاتهم بذعر ويتبادلون نظرات الاستياء والهلع فيما بينهم. عند ذاك اندفع مزكين ينظر من بعيد، كانت نظرة سريعة واحدة، ومضى بخطوات ضائعة ناسياً نفسه تحت الرذاذ.

ဢဢ

عندما يرقد الآخرون

منذ ثلاث ساعات وهو يتقلب في الفراش، لا يعرف أي حالة لعينة هذه التي تسيطر على جملته العصبية وتفقده توازنه، تضرم الروح بحريق لا ينطفئ. تشير عقارب الساعة إلى الثانية ليلاً، يسود صمت هائل في خيمة الظلام الحالك وليس من صوت غير الموسيقى الهادئة التي تحاول أن تهدئ من لهيب الاضطراب في روحه بيد أنها تخفق مرة تلو المرة رغم أنه يكرر الأسطوانة للمرة الرابعة.

كأنه يستلقي على قنبلة موقوتة قابلة للانفجار بعد لحظات، يحاول نسيان كل شيء يمت له بالحياة ليستغرق في نوم، لكنه بعد ساعة أخرى يدرك فشله في إغفاءة ولو لهنيهة.

لا توجد أزمة تؤرقه ليعالجها، هكذا بدون أي مقدمات ولا تمهيد ركبه اضطراب مجهول؟!

يشرد وهو ينظر في السقف عله يعثر على سبب ما: هل الوحدة هي السبب؟

رمى الفكرة لأنها ليست المرة الأولى التي ينام فيها وحيداً، فهو منذ سنوات طويلة اعتاد الوحدة التي تحقق له طقساً من الحرية والاستقلالية، وهو منسجم مع نمط الحياة الذي يعيشه. تمتم في نفسه: ما دام المرء يميل إلى لون من الحياة ويمارسه بالطريقة التي يبتغيها، هذا لا يسبب له قلقاً. ثم عاد وتمتم: هل هو خوف من الموت؟

رغم كل حبة للحياة وتعلقه بها فقد استطاع أن يتغلب على أي إحساس بالوجل من الموت، ويظن بأن الوحدة ساعدته في تعزيز هذا الشعور لأن الذين يعيشون حياة اجتماعية حافلة يكونون أكثر عرضة للإحساس بالخوف من الموت الذي سوف يأخذهم من وقائع الحياة الثرية التي يعيشونها، أما هو فعلاقته محدودة بالحياة، ولا توجد لديه علاقات عميقة وحميمة تجعله يخاف فقدانها.

ينهض من الفراش، يشعر بوخزات في جبهته، فكر في أن يتناول قرصاً منوماً، لكنه تراجع عن الفكرة قائلاً: إن لم

يأت النوم بشكل طبيعية فلا خير فيه إن أتى بشكل غير طبيعي.

يشعر بتعرق شديد، لم يعد يحتمل وبغتة يهرع إلى الشارع..

يطبق صمت مهيب على الطرقات. الناس في بيوتهم خافتة الأضواء يرقدون بأمان، حتى الذين عاشروا زوجاتهم فرغوا الآن واستغرقوا في ظلال نوم عميق، كان عليه أن يكون نائماً الآن.

هل يسهر ليحرس النائمين، ما معنى استيقاظه وخروجه إلى الشارع في هكذا وقت غير مناسب؟!!

تؤوب به الخطوات إلى حجرة نومه، يرتشف رشفة ماء ويتمتم لنفسه:

سأنام، لا بد أن أنام الآن، الحالة الهذيانية ولت من غير رجعة، تشير الساعة إلى الرابعة والنصف وعلي أن أستفيق في الثامنة لأذهب إلى عملي.

استلقى في الفراش وأغمض عينيه متخيلاً بأنه خرج من عالم اليقظة.

مضت ساعة أخرى أكتشف خلالها أنه لم يغف لحظة واحدة!!

لم يعد الأمر يُحتمل، انتفض مرة أخرى، ذهب إلى المطبخ تناول كأساً من اللبن، وعاد إلى غرفة النوم دون أن يجرؤ على الدخول في الفراش، ثم ما لبث أن تمتم: إنني معتوه. الآن اكتشفت بأنني معتوه أريد أن أقمع نفسي وأرغم عليها النوم بالقوة، أليس من حق النفس أن ترفض النوم ولو ليلة واحدة في السنة، أليس من حقها أن تتمرد على القانون وتضجره لتقرر مرة واحدة النوم في النهار، مثلاً في مقر العمل، في حافلة، في حديقة، في أي مكان.

ثم أردف موبخاً نفسه: ما الذي حدث؟؟ منذ ست ساعات وكأنني أريد أن أتسول لحظة نوم واحدة، كأنني لم أذق النوم من قبل، ولم أشبع نوماً، أشعر بعدم حاجتي إلى النوم، أستطيع أن أخرج الآن، أدور في الطرقات حتى الصباح ومن هناك أتجه إلى عملي، عندما أشعر بنعاس سيكون الاستغراق على وسادة الغفوة ممتعاً لأن النوم عند ذاك هو الذي يأتي ويجرجرني إلى رحابه.

أجمل ساعات النوم هي تلك التي تكون في غفلة، مثلاً وأنا أسهر على التلفاز ومستغرق في عالم برنامج جديد وفجأة أغرق في نوم عميق لمدة ثلاث ساعات متواصلة، وعندما أستفيق أرى بأن البرنامج انتهى ولحقه

برنامجان آخران، فأضع رأسي وأكمل النوم على الكنبة حتى الصباح.

تذكر للتو بأنه كاد أن يرتكب حماقة عندما فكر بأخذ أقراص منومة ليرغم النوم على نفسه.

أجل عليه أن يستمتع باليقظة مادام لا يشعر برغبة في النوم، وكل تلك الحركات التي بدرت منه ما كانت إلا هراء في هراء.

وقف على قدميه من جديد، تحركت فيه نشوة، أراد أن يفعل شيئاً ما، وضع في المسجلة أغنية تحمل إليه عبق ذكريات حنونة. عندها اكتشف خسرانه لأمر هام وهو أنه منذ أمد بعيد لم يسهر ليلة كاملة، يكون فيها يقظاً والناس نيام، ألم يحدث أنه كل ليلة عندما يكون نائماً، يكون شخص ما من هذا العالم يقظاً. وكم تمنى فيما لو عاد الليل من أوله ليستمتع بسهر كل لحظة من لحظاته الذهبية تلك.

ﮋﮊ

الرجل الذي أراد أن يخرب الدنيا

تتوه خطوات موظف التخطيط البلدي في متاهات أزقة تجمع سكني متناثر ومتداخل بات يسبب كثيراً من شجار بين السكان ويحتاج إلى مخطط لتنظيم وتشريع هذه البيوت التي أخذت تتكاثر بعشوائية وتزحف كخيم متناثرة إلى أطراف المدينة.

ولما أصبح ذلك ملفتاً طلب المحافظ من رئيس البلدية كي يقدم له شرحاً عن هذا الموقع، فأخبره بأنها أرض تابعة إلى بلديته وهي غير سكنية كانت البلدية ترغب في أن تجعل منها سوقاً للهال، أو كراجاً للبولمانات، بيد أن الناس الذين لا يملكون سكناً وضعوا أيديهم عليها وقاموا ببناء بيوت مؤقتة سنة بعد سنة حتى أصبح الأمر على ما هو عليه فأوعز إليه المحافظ ليضع مخططاً تنظيمياً لهذا

التجمع السكني غير المنظم بما يتلاءم مع المنظر الجمالي للمدينة.

وكخطوة أولى حضر الموظف الذي كلفه رئيس البلدية لإلقاء نظرة أولية على الموقع وكتابة المقترح الأولي من أجل وضع هذا المخطط الذي ربما سيكون حجر أساس من أجل الاعتراف الرسمي بهذا الحي واختيار اسم مناسب له، ومن ثم تزويده بالخدمات التي تحظى بها الأحياء الرسمية الأخرى.

تخطو بالموظف قدماه وكأنهما تاهتا عن جسده، تتجحظ عيناه ناسياً بأنه يمضي متأبطاً دفتره الذي يدون فيه ملاحظات سريعة وكأنها طلاسم، يلج منعرج زقاق مغلق، تستوقفه أصوات مرتفعة متداخلة تصدر من بيت طيني متصدع على وشك السقوط. للتو يدرك بأنه يقف على قدميه وأنه منذ نحو ساعتين كان يمشي ولم يكن واقفاً. يضع باطن كفه اليمنى على خده ويتأمل ظاهر البيت الذي لا ماء فيه ولا كهرباء ولا أي وسيلة اتصال استقبالاً أو إرسالاً بالعالم الخارجي.

يعلو صوت رجل قزم القامة داكن المحيا في وجه رجل آخر. يترك دفتره على حائط ويهرع ليحل بينهما النزاع، وفي أثناء ذلك يهرول أحدهما كسهم فيلاحقه الرجل

القزم حاملاً عصاه صارخاً بأنه يريد أن يحطم رأسه بها وهو يهرع خلفه. بعد قليل من الجري يقف فاقداً أمل اللحاق به، يستدير على عجل، يمسح العرق المتناثر على وجهه بكم ثوبه ويعود إلى البيت متجهاً هذه المرة نحو امرأة يبدو أنها زوجته غير آبه بالموظف الذي بدا يحمي رأسه من أشعة الشمس بالدفتر الذي عاد يحمله من الحائط. قبعت المرأة على الأرض كدجاجة ترتجف وتستنجد مستسلمة لثورة غضبة، فبدأ الرجل ينهال على جسدها ضرباً مبرحاً بالعصا تاركاً صوته يعلو متحشرجاً: سأخرب الدنيا، سأقيم القيامة، لن أدع الشمس تغيب اليوم.

أمام فورة الغضب لم يملك الموظف إلا أن ينزوي في زاوية دون أن يجسر الدنو منهما، فالرجل في حال فورة دم ولا أحد يعلم ما الذي يمكن أن يصدر منه.

بعد دقائق قليلة ظهر من مدخل الزقاق شرطي بهيئة دركي كلاسيكي يحمل على ساعده رتبة عريف، وعندما وقعت عينا صاحب البيت عليه بدأت نبراته.

تخفت إلى أن انطفأت في حنجرته، بدا الارتباك واضحاً على هيأته وهو يحدق في الشرطي القادم، سقطت العصا من كفه على الأرض، فقذفها بقدميه غاضباً ناحية

ركن خفي، وبات يبحث كخلد عن مخبأ آمن لجسده في أقصى سرعة.

نبهته المرأة بأن البرميل الصغير المقلوب على فمه يمكن أن يؤدي هذه المهمة. قذف شتيمة بنبرة خافتة إليها وهرول صوب البرميل في زاوية حائط طيني مائل على وشك السقوط. نظر إليه وكأنه يراه لأول مرة، ثم كوّر جسده ودسه بأقصى سرعة إلى أن اختفى تماماً تحت فم البرميل الصدئ تاركاً طرف ثوبه في الخارج، وقبل أن يصل الشرطي صرخت به المرأة، فسحب طرف الثوب إلى الداخل.

دخل الشرطي قائلاً بأنه كان في بيت مجاور وسمع من رجل بأن شجاراً وقع في هذا ا لبيت، فنفت المرأة قائلة بأن ذلك قد يكون وقع في إحدى البيوت المجاورة التي تكثر فيها الشجارات، وأن لا أحد في البيت غيرها، وللتو انتبهت إلى وجود الموظف البلدي الذي كان يقف في زاوية متأملاًَ البرميل ومحاولاً إخفاء دهشة بدت واضحة على سحنته، وعندها لم يتردد وهو يتقدم نحو الشرطي من أن يعرف بنفسه وبمهمته التي حضر من أجلها.

هز الشرطي رأسه وقال بأنه مرهق ويحتاج إلى راحة لمدة نصف ساعة قبل أن يعود إلى المخفر وطلب من

المرأة كرسياً، ولمّا أخبرته عدم وجود كرسي في البيت، دنا من البرميل وقذف مؤخرته عليه طالباً منها أن تصنع له كأساً من الشاي.

ꕤꕤ

إجازة الصيف

يراوده إحساس عميق باندفاع غريب نحو قرية نائية وقضاء عطلة الصيف فيها علّها توفر شيئاً من السكينة والهدوء لروحه.

منذ سنتين احتله شعور بأنه لا ينام، وأنه يلبث يقظاً رغم أن زوجته تؤكد له بأنه يغرق في نوم يمتد أحياناً خمس ساعات متواصلة. لكنه عندما يفتح عينيه ينتابه شعور بأنه لم ينم لحظة واحدة.

أحياناً يشعر بضوء مسلط عليه ليل نهار، حتى وهو في سرير النوم، ولا يعرف كيف يهرب من هذا الضوء الذي

لا ينطفئ ولا يدعه يشعر لحظة واحدة للاختلاء بنفسه، حتى عندما يتحدث خلسة مع ذاته يشعر بأن أحداً ما يستمع إليه.

شرد في الأمر ملياً إلى أن اهتدى لفكرة الذهاب إلى قرية ابن خالته، عند ذاك عادت به الذاكرة عشر سنوات إلى الوراء، المرة الأخيرة التي رأى فيها ابن خالته في تلك القرية النائية البعيدة، يومها جاء يدعوه لحضور حفل زواجه الذي يقدمه في رحاب القرية، فلم يجد بدا من الذهاب خاصة وأن أمه أيضاً طلبت أن يأخذها معه لأنها مشتاقة إلى أختها. حينذاك كان حديث العهد بالزواج هو الآخر ولم تكن له سوى ابنة واحدة في عامها الثاني، فأخذ الثلاثة دون تردد وانطلق إلى القرية. يوم وصولهم أقسم ابن خالته على مائدة الغداء أنهم لن يعودوا قبل أسبوع لأن مثل هذه الزيارات لا تحدث إلا في مناسبات كبيرة وعاتبتهم خالته بان أختها لم تزرها منذ أن تزوجت في هذه القرية غير ثلاث مرات.

تداعت المشاهد في ذاكرته كأنها تقع للتو، خالته، وهي تخبز على الصاج، وتصنع الطعام من ثرود الدجاج، أو ديك الحبش، أو الأرانب يرتدي الجلباب مساء ويتسامر في بيوت الأقرباء الذين يجمعهم السكن في هذه القرية،

يلعب الورق حتى ساعة متأخرة من الليل، يرى ابنته وهي تلاعب الأرانب والدجاج في علاقة حميمية، عند العصر يتجه في صحبة عائلية دافئة إلى تلة القرية يحتسون الشاي ويستنشقون أنساماً نقية. مضى الأسبوع مسرعاً وكأنه كان في حلم وردي، يذكر بأنه رجع ولم تكن لديه رغبة في الرجوع، تلك اللحظات راوده إحساس خفي برغبة البقاء في هذه القرية بعيداً عن زحام المدينة.

يزداد به الحنين إلى تلك الأجواء المسائية، كل الأوقات هناك تنعم بهدوء المساء، حتى وهو يقرفص على التلة يشعر أن لا أحد يراه، ولا أحد يلتفت إليه. يشعر بحاجته الماسة للعودة إلى تلك الطقوس الهادئة التي ربما تعيد إليه شيئاً من السكينة وراحة النفس، وتجنبه ذاك الضوء الذي يجعله في حالة اضطراب متواصلة، عندها يمكن له أن يستلقي على سطح الدار ويغور في نوم عميق يعوضه عن كل هذا الأرق الذي يحتل كل مفصل من مفاصله. يتحدث لزوجته وبناته الثلاث عن حنينه إلى ذاك الأسبوع ويقترح عليهن أن يمضوا إجازة الصيف كلها في تلك القرية.

القصة التاسعة

منذ سنة ونصف تلح عليه الفكرة دون أن تنجح في إقناعه ليباشر كتابتها، وكلما يتهيأ لحمل القلم ينتابه شعور بأنها لم تأخذ وقتها وحقها من تأمل وتفكير حتى تصبح ناضجة تستحق أن تكون القصة التاسعة التي يكتبها في حياته.

عندما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره أنجز كتابة أول قصة استغرقت منه سنة ونصف من الانتظار والمراجعات والقراءات المتعددة.

يوم ذاك وعندما أدرك بأنه فرغ منها كلياً وأنها لم تعد بحاجة لأي لمسة أخرى، أرسلها دون أن يتوقع أن هذه المجلة المعروفة ستقوم بنشرها، ودون أن يتتبع صدور أعدادها، لكن المجلة وبعد سنة أرسلت إلى عنوانه نسخة

تحتوي على قصته منشورة مع رسالة ثناء من مدير التحرير.

في تلك اللحظات راوده شعور بأنه ترك أثراً أدبياً على صفحات هذه المجلة وان اسمه بات جزءاً من تاريخها، وصار كلما يراها في المكتبات أو يسمع بها يتذكر قصته التي أخذت ست صفحات منها.

عندئذ بدأت تراوده أفكار عديدة لكتابتها، لكنه رأى ألا يستجيب لأي فكرة خشية أن تكون نتيجة رد فعل على نشر هذه القصة، فيكتب استجابة لرد الفعل الذي يحضه على تكرار النشر.

انتظر نحو سنتين حتى أحس بأن ذاك الحدث التاريخي أصبح جزءاً من الماضي، ثم جاءت الفكرة الثانية التي استغرق في كتابتها سنة وشهرين هذه المرة، وعندما فرغ منها رأى ألا يرسلها إلى ذات المجلة، بل يرسلها إلى مجلة أخرى لا تقل قيمة أدبية عنها، وهي مجلة شهرية تخصص كذلك صفحات في كل عدد للقصة القصيرة.

ليلة إرسال القصة بدا منهمكا ومرتبكا كعريس يرتب لاستعدادات الزفاف.

كان يقرأها على زوجته وعلى ابنته الوحيدة، ويعدل ما يراه بحاجة لتعديل، إلى أن وضع القصة في مظروف في

وقت متأخر من الليل، صباحاً نهض واتجه إلى مبنى البريد قبل أن يذهب إلى عمله في مصلحة الزراعة التي يعمل فيها مهندساً زراعياً، أودع الرسالة في إرسالية مضمونة واتجه إلى مكتبه.

بعد نحو ثلاثة شهور أرسلت له المجلة نسخة تحتوي على قصته منشورة برفقة لوحة تشكيلية ملونة وأشارت في الهامش بأنه /قاص/.

أحس بالاعتزاز لأن المجلة أطلقت عليه هذه الصفة رغم شعوره بأنه لم يبلغ مرحلة يكون فيها /قاصاً/، وصار يتذكر أسماء القصاصين الكبار الذين يقرأ لهم ويشعر بشيء من الحرج، يتذكر القاصي الذي يداوم على قراءة القصة ... واحدة له كل أمسية قبل النوم منذ نحو عقدين من الزمن، حتى أنه في السنوات الأخيرة أحضر جميع أعمال ذاك الكاتب القصصية وهو يجد متعة بالغة في قراءة قصة واحدة له قبل النوم بدقائق معدودة، وعندما ينتهي من قراءة أعماله القصصية كلها، يبقي الكتب في غرفة النوم كي يعيد القراءة مرة أخرى دون أن يغير هذا الكاتب الذي اعتاد على قراءته فقط في ذاك الوقت من الليل دون أي وقت آخر، وهو كاتب يقيم في ذات المدينة التي يقيم فيها. أحياناً يراه مصادفة في الشارع فيقف ويتأمل

كل حركة تبدر منه، ينظر إليه وهو يتذكر كل تلك القصص التي قرأها له قصة قصة، كل تلك الجمل والعبارات التي كانت تثير دهشته. تراوده فكرة أن يدنو إليه ويحظى ولو تبادل كلمة واحدة معه، لكنه لا يجرؤ على ذلك، ولا يدري بالضبط ما الذي يمنعه، لكنه يعود إلى البيت سعيداً وهو يتحدث لزوجته وابنته كيف أنه رأى ذاك الكاتب وكأنه كان كائناً سحرياً. أحياناً كانت تخطر له فكرة ويشعر بأنه لا يستطيع التعبير عنها بأسلوبه فيفكر أن يحصل على هاتفه ويخبره عن تلك الفكرة لعله يكتبها، ومرة أخرى يتردد ويكتفي بمتابعة قصصه الجديدة التي ينشرها باستمرار في بعض المجلات، وعندما تصدر له مجموعة قصصية جديدة يسعى لاقتنائها بأي وسيلة كانت رغم أنه يكون قد قرأ غالبية تلك القصص منشورة في المجلات.

عندما باشر بكتابة القصة الثالثة كان قد بلغ الثانية والأربعين من عمره، بيد أنه هذه المرة آثر أن يحتفظ بها دون أن يرسلها إلى أي مجلة، ولبث مصراً على فكرة عدم النشر رغم محاولات ابنته البالغة من العمر عشرين سنة بالعدول عن هذا القرار حتى أتت القصة الثامنة وبلغ معها الخمسين من عمره، فلم تتردد ابنته من أن تقترح عليه جمع هذه القصص ونشرها في كتاب يخلد هذه الآثار الأدبية

ويحفظها من الضياع، عند ذاك قال بأنه لا يفكر بمثل هذا الأمر، بيد أن ابنته وعند قراءتها لخبر عن إعلان مسابقة للقصة القصيرة تنظمها إحدى المجلات المشهورة استطاعت بمهارة أن تسطو على القصة وتأخذ صورة عنها وترسلها خلسة إلى تلك المسابقة.

بعد مرور ستة شهور على إرسالها للقصة ونسيان أمرها وبينما كان والدها في عمله نحو الساعة العاشرة صباحاً، رن جرس الهاتف وجاء صوت امرأة تسأل عن أبيها باسمه الثلاثي وتقول بأنه فاز بالجائزة الأولى لمسابقة القصة ا لقصيرة التي نظمتها المجلة، وطلبت أن تخبره حتى يرسل صورة عن جواز سفره كي ترسل له المجلة تذكرة طائرة ليحضر حفل استلام جائزته.

ظنت الفتاة بأنها في حلم، وعادت من جديد تتذكر كيف أنها أرسلت القصة إلى المسابقة دون علمه فلم تملك فرحتها ودهشتها وراحت تخبر أمها الخبر الذي سمعته في الهاتف، وما لبثت أن اتصلت به تخبره النبأ. في البدء ظن أنها تمزح لأنه لم يرسل قصة إلى أي مسابقة، فلبث إلى أن انتهى الدوام دون أن يفكر بالأمر، لكنها في البيت أكدت له الخبر وطلبت أن يسامحها على تجاوزها بحقه لأنها أرسلت القصة دون موافقته، وعندما تأكد له ذلك هز رأسه علامة

بالسماح مبتسماً وكأنه يخبرها بأنها فعلت ما كان عليه أن يقوم به، ورأى نفسه بطل حدث وقع بالفعل. في اليوم التالي وأمام إلحاح زوجته وابنته اتصل بالمجلة وذكر اسمه الثلاثي، فأكدت فوزه بالجائزة وقدمت له التهنئة، لحظتئذ لم يجد بدا من الموافقة على السفر.

بعد يومين من وصوله بدأ الحفل ولأول مرة رأى نفسه وجهاً لوجه أمام الجمهور وكاميرات التلفاز يقرأ قصته كما طلبت إليه لجنة المسابقة.

والآن ها هي فكرة القصة التاسعة تراوده وقد دخل حيطان الخامسة والخمسين من عمره. يشرد بها طويلاً، يقلب الفكرة على كل أوجهها، يرى بأنها ليست ناضجة، يقرر أن يتركها لعل السنوات القادمة تحمل له فكرة قصة جديدة تستحق أن تأخذ مكانة قصة تاسعة.

ഊഊ



(ت)

حكاية النمر الذي أصبح نباتياً

على جناح بغتة تعكر صفاء الطبيعة ولاحت بدايات عاصفة محتقنة في الأفق، كل الكائنات المنتشرة في حضن الطبيعة فترة ما قبل الظهيرة هذه أصابها الجفل من التحول المباغت في السكون الخريفي، وغدا كل كائن صغير وكبير مثل السهم وصولاً إلى وكره، أو باحثاً عن أي ملجأ يقيه عواقب هذه العاصفة التي بدت كهزة في قلب الخريف الآمن.

في هذه الأثناء كان ثمة نمر يلتهم فريسة وقع عليها للتو، فانتبه إلى الضجيج الذي غدا شبيهاً بحرب فتاكة من حوله، رفع رأسه بحركة سريعة وأدرك بأنه بات قاب قوسين أو أدنى من دائرة الخطر، كانت العاصفة إذ ذاك قد غدت

على مقربة منه ومقدمتها تعصف بكل شيء في دربها، فلم يجد النمر الممتلئ بالرعب سوى أن يهرع أمام العاصفة علها لا تلحقه أو علـه يجد صدفة ملجأ يحميه من هذا الغضب العاصف.

يهرع النمر.. ما يزال يهرع بقوة ركض لم يكن يتخيلها في طاقته، والعاصفة القاتمة تلاحقه بسرعة الصاعقة.

لم يعد يعرف إن كان هو الذي يقترب منها، أو هي التي تدنو لتشرب روحه وتفتت جسده كأنه لم يكن.

تمتلئ روحه بالذعر الذي يفجّر من طرفه طاقة أقوى للركض، كل ذرة فيه ترتعد رعباً من النهاية المأسوية الشرسة، إنها العاصفة التي تحصد الغابات والبيوت وحتى الجبال الصغيرة، تخلع كل شيء من الجبال الشاهقة فتحيلها إلى جبال ملساء.

يتخيل النمر كل هذه المناظر وهو يرى الآثار تتطاير وتتناثر أمامه في مقدمة العاصفة، كل هذه المناظر تمضي أمام عينيه وهو طائر كسهم طائش لا يدري أين سيقع.. يجري من مصير مجهول يلاحقه ثانية بثانية وهو يشعر بأنه يهرب نحو عدم الخروج من الحياة برمتها، من الغابات والأشجار ولحظات الظفر بطعام شهي.

بغتة أحس بدنو العاصفة فلم يعرف ما الذي سيفعله، كل ما هو مصر عليه هو عدم الاستسلام كما تستسلم تلك الفرائس الواهنة لفكيه، لم يعجبه أن يتخيل نفسه في وضع كهذا يقع فريسة مستسلمة لفكي العاصفة الشرسة، وبغتة اصطدم جسده بصخرة ضخمة بدت صامدة في وجه الريح، وفي رفة جفن رأى نفسه وسط العاصفة وقد تشبثت يداه وقدماه بالصخرة والرياح العاتية تمر عليه بشدة لم يكن يتخيلها تاركة أزيزاً نارياً في أذنيه.

لكنه لقاء ذلك أحس بأمر غريب عندما أدرك بأنه تمكن جيداً من الصخرة وقد حفر مواضعاً في جسد الصخرة الصامدة، وهذا ما زاده إصراراً على المواجهة وعدم ترك جسده يذهب هباءَ، فقد استطاع أن يحفر في الصخر وهذه حقيقة يلمسها، لكنه بذات الوقت أخذ يحس بأن العاصفة تقتلع بعضاً من وبره، فلم يأبه لذلك قائلاً لنفسه بأن الوبر سيعود وينمو مرة أخرى عندما يأتي فصل الربيع.

بعد لحظات رعب أخرى أحس بشيء من جلده يُقتلع في مهب قوة العاصفة، فامتلأ ذعراً وهو يشعر بأن الجلد ينسلخ عن جسده ويعاني حرقة لم يذقها طوال حياته، إلا أنه يتمسك ببقايا أمل ما دام لم يستسلم نهائياً، وما دامت لديه قدرة على المواجهة والصمود وعدم الاستسلام لحرب الطبيعة.

أدرك بأن الجلد انسلخ تماماً وأنه لبث جسداً بلا جلد يواجه عنف العاصفة وجحيم الألم في لحظة واحدة.

مرت لحظات مزلزلة أخرى على روحة التي ضاقت به وضاق بها وهو يواجه ما لم يكن يتخيله من لحظات يبلغ فيها العنف ذروته وتبلغ حدة الألم قمتها، وهنيهة هنيهة أخذت نيران العاصفة تخمد عليه، عبّ نفساً طويلاً وبدأ يسدل قوائمه شيئاً فشيئاً عن الصخرة وهو يرى بصيص ضوء يلوح من بعيد كأنه ضوء قادم بعد دهر من ظلام أزلي.

ترك قوائمه من الصخرة ليجلس على ذيله يعب أنفاساً طويلة ويتأمل نعمة الهدوء.

عندها قال لنفسه: كم أنت قوي أيها النمر، وكم أنك متشبث بالحياة.

لكنه بعد هنيهة بكى ووبخ نفسه على لحظات الرعب التي عاشها قائلاً: لو كنت أعرف حجم هذه القوة في جسدي لما انهزمت من العاصفة.

واكتشف عند ذاك بأن ما تركه الرعب من أثر عليه كان أسوأ مما تركته العاصفة وأنه لو واجه الرياح بالقوة التي اكتشفها للتو لعجزت عن سلخ جلده، ولعجزت عن تسبيب كل ذاك الذعر في نفسه، ثم ألقى نظرة إلى جسده

المسلوخ وأردف: في الربيع القادم سوف ينمو جسدي بجلد جديد.

ومضى في حضن الطبيعة التي بدت أمامه وليدة للتو..

تساقط رذاذ خفيف من السماء وسطعت الشمس مرة أخرى على الأرض خرجت على إثرها الحيوانات من مخابئها، أحس النمر بجوع ورغبة في التقاط فريسة، لكنه تذكر قوته الهائلة التي يتمتع بها وقال: وأنا بكل هذه القوة الهائلة، كم كنت جباناً في افتراس تلك الحيوانات الواهنة، إنني خجول من كل هذه القوة التي اكتشفتها في طاقتي.

أدرك بأنه عندما كان يطارد فريسة كان بذات الوقت يجرب قوته ليكتشفها، وكان دافعه الجبن الكامن في أعماقه، ولذلك لم يكن بوسعه أن يكتشف كل طاقة القوة التي يتمتع بها رغم كل تلك الفرائس التي كان يقع بها أحياناً حتى وهو مشبع: أجل لقد كنت جباناً أيها النمر.. كنت جباناً وأنت تجرب جبنك على الحيوانات الآمنة الضعيفة.

تذكر حجم الألم الذي عاشه في لحظات سلخ الجلد عن جسده وهمهم لنفسه: لن يكون الجوع أشرس من تلك العاصفة.

من يومها وهو يقاوم رغبة الافتراس كلما لاحت له فريسة ليصبح يوماً بعد يوم نباتياً ويزداد قوة على قوة.

الحافلة

لحظات تحرك حجم الحافلة تجاه القرية، انقذف رجل بجسده المنهك وكأنه يحمل على ظهره جبلاً، بدا التشتت صارخاً على سحنته، وحرارة الصيف تزيده قلقاً. سعى بينه وبين نفسه إلى لملمة ولو جزء من تيه الشتات، لكن ذلك زاد في أزمته النفسية الحادة التي يشتعل فيها وتلتهب فيه، وفي لحظات بدت الحقيبة التي يحملها بيده اليمنى تشكل عبئاً على كاهله رغم أهمية ما فيها.

أجال بنظرات سريعة إلى المقاعد المكتظة وسط حدقات القاعدين بأمان وسكينة في مجالسهم وقد صوبوها إليه بذهول، فراوده إحساس بأنه اندس في مكان حشواً، وهو كائن لا يلزم في موضع ليس له موطئ قدم فيه، فتلبسته حالة هائلة من غربة، وتمنى لو يقف الباص فينزل وإن واصل السير سبعة أيام على قدميه ليصل البيت.

أراد أن يصرخ في وجوه الذين يحدجونه بنظرات مريبة: لم أهرب من مطاردة، لكنني رميت بجسدي في هذا الباص الذي لا مكان لي فيه اتقاء من شدة الحرارة.. أنا من هذا الكوكب، لست من كوكب آخر.

بعد نصف ساعة من تحرك الحافلة ارتمى نصف رمية على جزء بحجم كف من مقعد مجوز مسبباً حالة ضيق للراكبين القاعدَين في مقعدهما باستقرار، ولما علم تسببه في إزعاج الرجلين الذين استاءا من تصرفه العشوائي المستغل لفسحة صغيرة من مقعدهما المجوز، وجّه إليهما نظرة توسيلة كي يتركاه في هذا الركن الساند لإنهاكه الشديد، موحياً لهما أن ذلك بمثابة إسعاف لإخراجه من حالة الإنهاك المدمرة التي ركبته ولا يجد فكاكاً من هيمنتها. فأوحيا له دون صوت أن يلبث جالساً دون حراك.

عندئذ انطلقت منه زفرة عميقة كأنها سحبت من أعماقه حريقاً، وأخذ يسترد شيئاً من هدوء أعصابه وجسده معاً، وفي هذا الوقت الذي أحس فيه باستسلام لغفوة استرخائية تناهى إلى مسمعه صوت ابنته ناعماً وكأنه هديل حمامة: باب، لا تنس أن تجلب لي من المدينة كتاب قراءة.

مد أصابعه إلى أحشاء الحقيبة الجلدية السوداء وهو مغمض العينين، تلمس الكتاب المستقر في ظلمة الحقيبة، سرت في حناياه رعشة اطمئنان زادته سكينة.

قبل أن تغطيه الغفوة بسكينتها، تناهى إلى مسمعه صوت ابنته الثانية: بابا لا تنس أن تجلب لي معك من المدينة كتاب ديانة.

عادت أنامله مرة أخرى تتلمس أحشاء الحقيبة حتى استقرت على الكتاب الثاني فازداد طمأنينة والباص يمضي تحت جسده كأرجوحة، والراحة تنتشر في أنحاء أعضائه وروحه كأنه لم يكن ذاك الرجل الذي كاد الاضطراب أن يأكله قبل حين، وما لبث أن ترامى إلى مسمعه صوت ابنه: بابا وأنت ذاهب إلى المدينة لا تنس أن تجلب لي معك خريطة الوطن.

امتدت أصابعه مرة ثالثة بمزيد من طمأنينة إلى جوف الحقيبة فلمست الخريطة وانسحبت بالطمأنينة التي ولجت فيها.

بعد هنيهات معدودة استسلم الرجل لغفوة مباغتة وكأنه ممدد في فراشه، لم يكن يحس بغفوته المستكينة لولا نداء الجابي الذي أيقظه ليسدد أجرة ما هو فيه من نعيم، ففتح عينيه كمن جُرَّ جراً من رقاد عميق، وامتدت أنامله إلى

الحقيبة لينقذ الجابي أجر الركوب، وبغتة هب منتصباً كالملدوغ مكتشفاً أن الحقيبة ليست على ركبتيه.

صرخ بالراكبيَن وبجميع مَن في الحافلة فعادت الأنظار تتصوب إليه كما كانت أول مرة، وتعالت أصوات لإنزاله من الحافلة، فهو منذ ركوبه ما كان طبيعياً. عندها أدرك أن السائق سينزله بالقوة فيما لو تمادى في صراخه.

نادت امرأة بأنها قد تبرعت بأجرته على أن يصمت ولا يفسد على الركاب استئناسهم في الرحلة، فعاد يبرك في مجلسة الذي لا يتسع لدجاجة، مسبباً الضيق للراكبَين مرة أخرى وهو يهمهم في نفسه ويسعى لإقناعها بأنه لم يكن يحمل حقيبة لحظة صعوده وأن ذلك كله كان ومضاً في غفوة.

ﮩﮩ

الكراسي الفارغة

منذ عدة أيام لاحظ بعض رواد القاعة أن عدد الحضور يتضاءل حتى انحدر إلى أقل من النصف.

قال البعض بأن السبب هو رداءة المواضيع التي تُقدَّم للجمهور الذي ضجر حالة اللا جديد.

ورأى البعض أن فصل الصيف شديد الحرارة هو السبب، ونظر البعض الآخر بأن حالة الفقر المدقعة التي أتت على البلاد والعباد هي التي جعلت الناس لا يفكرون إلا بتأمين لقمة العيش، لأن حضور الأنشطة الثقافية يعد من الثانويات ومن الأمور الترفيهية التي يقضي بها المرء وقت فراغه في متعة معرفية.

بعد انتهاء النشاط الثقافي الأخير الذي حضره فقط تسعة أشخاص مضى السيد عارف مع صديقين له بتمهل نحو قلب المدينة متمتماً: كل الكلام الذي قيل كان فارغاً،

مـن السـخافة أن نعيـد السـبب إلـى رداءة المواضـيع لأن الجمهور لا يعلم مسبقاً ما سيسمع، حتى الكاتب الرديء يظهـر أحيانـاً بكتابـات جيـدة وجريئـة وهـو فـي أحضـان رداءته. ثم أردف ضاحكاً بسخرية وهو يصر أن يسمعاه: المضحك أن نعيد السبب إلى الصيف لأن كل سنة فيها صيف، وقاعتنا مكيفة ومغرية للجلوس فيها ساعات طويلة، وما هو مثار للسخرية أن نعيد السبب إلى الفقر، القاعة لا تقبض اشتراكاً من أحد ولا رسماً للدخول. أي شخص في هذه المدينة يجد ساعة واحدة في المساء يمضيها لمتعته الشخصية. هؤلاء يقضون أكثر من نصف يومهم في فراغ، في نوم وأحاديث لاهية، ولعب الشطرنج، ويمضون غالبية الليل بلعب الورق والتدخين واحتساء الشاي والقهوة.

يتحدث عارف بنبرة جدية ملفتاً أنظار صديقيه: أرجو أن نتذكر جيداً، أن نذكر حضور شخص غريب إلى قاعتنا منذ شهرين، هذا الشخص هو سبب انسحاب الناس من القاعة، ولا أخفيكما بأنني راقبت الجمهور ورأيته يتجمع في المقهى المجاور للقاعة، يمضي ساعات طويلة في لعب الورق والشطرنج.

قال أحد الصديقين وهو يضحك: يا أخي خيالك شطح بك بعيداً، فما دخل هذا الرجل بالأمر، ليكن فناناً تشكيلياً

مهلوساً، أو شخصاً مصاباً بلوثة، أو ليكن صحفياً. ثم نظر إلى عارف مستأنفاً جوابه: أنا تذكرته يا عارف، يجلس في إحدى المقاعد الخلفية ويدون بعض الهلوسات في دفتر متوسط الحجم يحمله بيديه، فما علاقة هذا الكائن بهؤلاء الذين باتوا يفضلون المقهى على القاعة؟

تحمس الصديق الآخر لرأي صديقه وقال: أنا معك، هذا الرجل هادئ ولم يسبق له أن أزعج أحداً من الجمهور لا بسؤال ولا بمحاولة تعرف، كأنه ليس من أبناء البلدة.

الأمر الآخر أن هذه القاعة مفتوحة للجميع ولا تكون غنية إلا إذا ارتادها الناس من مختلف توجهاتهم لأنها تقدم حالة ثقافية عامة لمختلف فئات الناس سحب عارف سيجارة من علبة تبغه بعصبية وصار ينفث الدخان ويقول مدافعاً عن تحليله: ما رأيكما أن أثبت صواب نظرتي؟

قالا بتعجب: كيف تثبت صواب نظرتك؟

دعوني لشهرين وسترون النتيجة. قالها عارف وافترق عنهما متجهاً صوب بيته وهو يلوح بيده مودعاً.

لا أحد يعرف كيف حدث ذلك، وكيف استطاع عارف ببداهة إقناع ذاك الرجل ليجلس في المقهى المكتظ بالناس لمدة شهرين بدل القاعة، وكان صاحب المقهى حينها بدأ يتفاوض مع جاره من الجهة الشمالية ليشتري مكتبته

الخاصة ببيع الصحف والمجلات وبعض الكتب الأدبية ويجعلها توسعة للمقهى بعد هذا الانفتاح الذي أتاه فجأة منذ شهرين وجعل مقهاه يضيق بأعداد المرتادين الهائلة، فصار يغري هذا الجار بمبلغ جيد ليبيع له المكتبة حتى أنه قال: يا أخي أعرف بأن دخل هذه المكتبة لا يقدم مصروفك اليومي، سأعطيك مبلغاً لو أودعته في البنك سيجلب لك دخلاً شهرياً يزيد عما تكسبه من المحل، وستكون جالساً في بيتك لا ضرائب ولا تموين ولا فواتير ماء وكهرباء ولا من يحزنون، ثم يا أخي لك بشكل يومي ضيافة مجانية في مقهاي.

كان عارف يراقب الرجل ليتأكد بأنه يتواجد في المقهى كل يوم ولا يقرب من القاعة، وبدأ زبائن القاعة يلاحظون حضور ذاك الرجل في المقهى وصاروا يتغامزون وينشرون الخبر حتى علم الجميع بذلك بمن فيهم زبائن المقهى القدامى، وبدأت الأقدام تخف من المقهى حتى مضى شهران ليرى صاحب المقهى وقد فرغ مقهاه إلا من بعض بائعي اليانصيب وماسحي الأحذية الذين يترددون للحظات وعندما لا يرون أحداً يعودون.

وحده ذاك الرجل يقبع على طاولة بمفرده يدخن ويحتسي الشاي متأملاً الذي يدخل والذي يخرج.

في هذه الأثناء بدأت القاعة المجاورة تستعيد حيويتها وتستقطب مختلف شرائح الناس الذين يمضون ساعات في الإصغاء والحوار، حتى أن مقاعدها لم تعد تتسع للحضور الذي يتزايد يوماً إثر يوم.

في إحدى الأنشطة همس السيد عارف لصديقيه: هل تأكدتما من ذلك؟

ودار بينهم حديث طويل تسرب جانب منه إلى أسماع أحد الحضور، فلم يملك السامع نفسه وقد شعر بأنه عثر على كنز، وراح يطير صوب المقهى التي بدت فارغة إلا من صاحبها وذاك الرجل الذي يقبع بمفرده. برك جوار صاحب المقهى وصار يحدثه عن السر الذي يقف وراء خواء المقهى وهما ينظران بارتياب إلى/قاطع الرزق ذاك/.

بعد نصف ساعة من الهمس نهض الرجل فوعده صاحب المقهى بمكافأة ريثما تعود المياه إلى مجاريها.

بخروجه نظر صاحب المقهى إلى الرجل الذي ما يزال قابعاً نظرة عداء، لكنه تمالك نفسه وأراد أن يرد على القاعة بالمثل ودون ضجيج، ولا أحد يعرف كيف نجح صاحب المقهى في إقناع هذا الرجل ليعود فيجلس في القاعة بدل جلوسه في المقهى.

لم يمض شهر على عودة الرجل الذي يحمل دفتراً بيده إلى القاعة حتى خلت مرة أخرى من رائحة الحضور. من يومها توقف عارف وصديقاه من ارتياد القاعة واستبدلوها بالمقهى. لبثت القاعة بلا رواد إلا من ذاك الرجل الذي يداوم على مقعده وعلى إملاء صفحات دفتره الذي لا ينتهي وكأنه يكتب مذكرات قاعة.

كتب تحترق

لا أحد بالضبط يعرف كيف حدث ذلك، بغتة التهبت ألسنة النار آخذة في التهام واجهة المكتبة الضخمة، وهي أضخم مكتبة في المدينة.

يُقال بأنها مذ فتحت أبوابها لبثت على مهنة بيع الصحف والمجلات، وأحياناً تتولى توزيع هذه الصحف والمجلات على بعض مكتبات النواحي والمناطق التابعة لهذه المدينة وقد جندت لذلك سائقاً وسيارة، بل أحياناً فإن سيارة خاصة بها تتولى جلب الصحافة من العاصمة فتكون قد وزعت الجرائد اليومية قبل وصولها إلى مكتبات المدينة بساعتين.

التمّ أصحاب المحلات المجاورة للمكتبة وهم ينظرون إلى النار ترتفع في حاملة الصحف والمجلات الضخمة بواجهة المكتبة دون أن يجسروا على فعل شيء.

أما صاحب المكتبة والعمال فقد خرجوا مذعورين وهم يصرخون بالجوار كي يتصلوا بالإطفاء، والمدهش في الأمر أن الرجل الذي قام بهذا الزلزال الحرائقي في قلب المدينة راح يقف قبالة الحريق على الرصيف المقابل وهو يعب أنفاساً عميقة من غليون أثبته بين شفتيه، ينظر إلى الحريق بتلذذ والبسمة تملأ محياه كمن يتفرج على فعل بطولي قام به، وهذا الموقف المريب بالذات منع الناس للاقتراب منه تحسباً بأنه يخفي سلاحاً سيستخدمه في وجه شخص يدنو إليه.

صاحب المحل المقابل للمكتبة قال لجمع صغير حوله وهم يحدقون في الرجل بريبة وحذر: يا جماعة، رأيت هذا الشخص يقف قبالة لائحة الصحف والمجلات كعادته كل يوم منذ نحو ثلاث سنوات، فقد اعتدت أن أراه يومياً ساعة المساء يمضي بعضاً من الوقت وهو يتأمل ويقرأ العناوين، يقلب بعضها، وأحياناً يسحب واحدة يتصفحها قليلاً ويعيدها إلى موضعها، ثم بعد قليل يدخل المكتبة فيشتري ثلاث أو أربع جرائد ومجلات.

حتى أن صاحب المكتبة ألفه ويسمح له بتصفح أي جريدة أو مجلة إن لم يكن يملك ثمنها بعد أن عرف بأنه نهم القراءة وراتبه لا يمكنّه شراء جميع الصحف والمجلات التي يرغب في قراءتها، وقد عرف جاري . الرجل الطيب .

بـأن هذا الشـخص البـالغ مـن العمـر خمسـة وثلاثين عامـاً مازال عازباً ويقيم في عزلة ولا توجد وسيلة تسلية لديه غير القـراءة، فهـو لا يملـك مـذياعاً ولا تلفـازاً، ولا صـديقاً ولا صديقة، ولا يوجد لديـه أي مصـدر رزق، وعلـى الأغلب . والله أعلم . أن بعض أقربائـه خصصوا لـه راتباً لا يسمن ولا يغني من جوع. أردف وهو ما يزال ينظر في الرجل: علمت من جاري صاحب المكتبة أنه في موسم الحصاد يخرج مع حصادة يعمل طباخاً للعمال، يقضـي شهراً ونصف الشهر، يجلب بعض النقود يفك بها الديون التي تراكمت عليه طوال عام.

لا أعرف لمـاذا رأيتنـي أتحرى عنـه وأتـابع مـا يخصـه ممن هم على صلة به، لم يسبق لـي أن رأيته في شـارع إلا وقد تـأبط جريدة أو بيده مجلـة، وكنت دومـاً أقول لنفسـي: هذا الشخص أصيب بلوثة القراءة.

ثـم أردف وعلامـات الهلـع تتصـاعد إلـى وجهـه: كنـت أرتقب ظهوره كل مساء لأنظر إليه وهو يعب أنفاساً من الغليون ويتأمل الصحف والمجلات يقلبها، يسحبها، ويعيدها إلى أماكنها، ثم يدخل المكتبة فيخرج بما اشترى.

كان صاحب المحل المجاور يتحدث بجدية بالغة وقد تعرّقت جبهتـه بينمـا النـاس يزدادون نظراً وتحديقاً فـي هذا

الشخص الغريب الذي يبدو في هيئة منتصر وهو يتأمل المجد الذي وقع عليه، فتابع صاحب المحل بذات الجدية وهو يحدق فيه بعينين نسريتين يقظتين متوقعاً أن يشهر سلاحاً ويطلق النار بعشوائية على كل مَن في الشارع: وقف كعادته يا أخوة وهو يحمل بيده هذه المرة زجاجة كبيرة، رشها بسرعة على الجرائد والمجلات، وبذات السرعة قذف ما بقي فيها داخل المكتبة ورمى عود الكبريت لتنفجر النيران.

امتدت ألسنة اللهب إلى داخل المكتبة الضخمة، ابتعد الناس عن الحرارة، آلاف الصحف والمجلات غدت وقوداً للنار تزيدها اشتعالاً ولهيباً، بعد دقائق أخرى هبطت الألسنة إلى القبو لتلتهم حتى الجرائد والمجلات القديمة.

. اتصلوا بالإطفاء يا شباب.. اتصلوا بالإطفاء.

علا هذا الصوت المذعور من جموع الناس.

. يا أخي اتصلنا.. اتصلنا عشر مرات يقولون: حضرة الإطفائية بالطريق.

علت إجابة وسط الدخان واللهيب وحشود الناس المزدحمة بينما لا يدنو أحد من ذاك الشخص الذي ما يزال يقف بشموخ ويعب من غليونه تاركاً البسمة تملأ وجهه وكأنها أول بسمة حقيقية يبتسمها في حياته، وفي ذروة

ابتهاجه تفاجأ الناس بشبك ينزل من سطح المحل الذي يقف تحته ويرفعه إلى الأعلى، انتفض الرجل كطائر وقع بغتة في شبك، لكنه لم يستطع فكاكاً.

اندفع موج الناس إلى الشارع الخلفي حيث كانت سيارة حكومية تستقبل الرجل المشبوك وتتحرك بأقصى سرعة في الوقت الذي ترامى فيه من الطرف الآخر صوت الإطفاء الذي وصل متأخراً وقد خمدت النيران من تلقاء ذاتها عندما التهمت آخر ما يمكن له أن يُلتهم.

في اليوم التالي امتلأت الصحف بخبر إحراق أضخم مكتبة لبيع الجرائد والمجلات في قلب المدينة، وانهال الصحفيون ومراسلو وكالات الأنباء والقنوات الفضائية إلى حيث توقيف هذا الرجل في المدينة وهم يؤولون ويفسرون ويشرحون أسباب إقدامه على هذا العمل، لكنهم عادوا من حيث أتوا بخفي حنين عندما قيل لهم بأنه رجل مصاب بلوثة عصابية، وبالفعل فقد تم إخلاء سبيله بعد يومين من توقيفه فخرج الرجل يشعل غليونه من جديد بعد حرمانه منه لمدة يومين وهو يتمتم: شكراً على هذه الشهادة التي أعفتني من غرامة وسجن طوال عمري.

ثم أخذ ينظر في الخلق وهو يشق طريقه وسطهم نحو بيته مخلفاً وراءه قهقهات هستيرية تلفت أسماع الناس وهم يتمتمون: العقل زينة الإنسان.

بضاعة العولمة

صبيحة يوم غد عليه أن يقوم بافتتاح أعمال مؤتمر الشركة السابع عشر بصفته مدير عام هذه الشركة التي تدعم شريان الاقتصاد الوطني بالدماء، سيستهل الافتتاح بكلمة تمهيدية كمقدمة لإلقاء كلمات مدراء الفروع الذين حضروا من كل المدن. هذه الكلمة ستمثل موقف الشركة الكبرى من المجريات الاقتصادية والتجارية والاستثمارية التي تجري في العالم، وسوف تُنقل حية مباشرة عبر قناتي التلفزيون الأرضية والفضائية، وليس من المستبعد أنها ستعرض على كبار مدراء الشركات الاستثمارية في العالم

لأخذ لمحة عن منابع الاقتصاد الوطني والإفادة من خطة العمل، ومنهجية الإنتاج.

يقبع رمزي العالم خلف طاولته ككاهن وقد تجاوزت الساعة العاشرة ليلاً، يسرح في فضاء مخيلته بحثاً عن موضوع ساخن يمكن أن يكون عنوان الكلمة الافتتاحية التي تعد . بالنسبة لموقعه الإداري . مصيرية، فهي ستقدم إلى كبار المسؤولين وتعطي صورة جلية عن توجهه في إدارة هذا المَعلَم الاقتصادي الهام.: هذه الكلمة من شأنها أن ترفع مرتبتك يا رمزي فتجعلك أكثر قرباً من موقع القرارات الكبرى، أو تهبط بك فتحيلك إلى موظف صغير كآلاف الموظفين الذين ينتشرون/أكثر من الهم على القلب/في كل فروع شركتك المنتشرة. كن على حذر يا رمزي إنك ترسم مستقبلاً لك في هذه البلاد فلا تتعجل في قول كلمتك، ستكون كلمتك هي/أنت/في إسماع أصحاب القرار.

مد يده إلى ماعون الورق، جر نصوع ورقة وتخيلها ممتلئة بما يجلب عليه الرضى العام، ثم امتدت يده إلى المقلمة، سحبت قلماً لا على التعيين، وأخذت كل هذه العوامل تتضافر لإيجاد فكرة مثيرة يفرغ من خلالها ما في مكنونات نفسه: الخيال . القلم . الورقة . اليد: هيا يا رمزي أفندي، إنها فرصتك السنوية الثمينة، لا تتردد، تذكر

لحظـات العـز والاحتفـاء وأنـت تمثـل موقعـاً بـالـغ الأهميـة. تكتب أنامله عبارات، ثم ما تلبث أن تشطبها، وبغتة تومض كلمـة كـالبرق فـي ذهنـه: /عولمـة/ إي يـا رمـزي /عولمـة/ شدت انتباهه. كتبها علـى الورقـة، شـاغلة النـاس أجمعين، وكبرى المنشآت الاقتصادية هذه الأيام، إنها حديث الساعة. زحفت أنامله إلى علبة دخان أمريكية الصنع مرتمية أمامه، ضغط علـى زر القداحـة النرويجيـة وعب نفسـاً عميقـاً لذيـذاً من عمق النيكوتين الذي بدا مدمناً عليـه، وغدا فـي تهيئـة جيدة لإفراغ ما لديه تحت هذا العنوان الشديد السخونة.

رفـع رأسـه إلـى أعلـى الصـفحة البيضـاء وخط بحـروف متأنيـة كلمـة /عولمـة/ وشـرع يـدون تحتهـا وقد هيمنت عليـه حالة من الإبداع وسحرية البيان: سيداتي، ساداتي، إنه لمن دواعـي الغبطـة والشـرف أن أمثـل هـذا الصـرح الاقتصـادي الهام وأفتتح أعمال مؤتمركم السابع عشر هذا، ويطيب لـي بهـذه المناسـبة أن ألقـي كلمـة مـوجزة حتـى أفسـح المجـال واسـعاً أمـام كلمـاتكم ومـداخلاتكم ومقترحـاتكم التـي سـيقر مـؤتمركم هـذا أكثرهـا نفعـاً وأعمهـا فائـدة للجميـع وللمصـلحة العامة. تعلمون أن صيحات العولمة تكاد تملأ كل مجـالات العمل والصناعة، وشركتنا معنية بهذه التحولات التي تجري في العالم من حولنا.

أيها السادة أنتم تعلمون أن فقاعات هذه العولمة غزتنا حتى في عقور دورنا، وهي لا تكتفي بسلبنا أموالنا فحسب، بل ترمي إلى سحقنا من جذورنا ومن هويتنا الوطنية بدعوى أن العالم كله سيكون وطناً واحداً لبني الإنسان، وإذا بنا نذوب نحن الشعوب الصغيرة في عالم العولمة الكبير، واعلموا أيها الأخوة أن الضعيف في نهاية الأمر سوف تبلغ به الحال إلى أنه لن يجيد لنفسه ولا لأهليه موطئ قدم في هذه الغابة البشرية الهائلة والتي يتم تضييق وتسوير الكرة الأرضية بها ببادرة من القوة العاتية التي تظن بأنها تحكم العالم بجبروتها ونفوذها وهيمنتها الاقتصادية.

إننا ومن موقعنا هذا أيها الأخوة نرى أن شريعة هذه البدعة لا تقل سطوة عن شريعة الغاب، ولا نظنها إلا أخذت هذه الشريعة من الغاب، فالقوي أيها السادة يلتهم الضعيف الواهن، والجبار يدوس على المعوق ويمضي. بهذه المقدمة التي نؤمن بها، احب أن أبين لكم بعض النقاط الرئيسية التي ارتأينا رسمها كمنهاج لخطة عملنا القادمة، فنشجع على كل إمكانات الاستثمار والإنتاج المحلي بدل أن نعتمد في مستلزمات حياتنا على الاستيراد. امتدت يده الأخرى إلى السيجارة فوجدها رماداً، عندئذ تناهى طرق خفيف ولجت على إثره زوجته الحامل في

شـهرها السـابع، ولمـا رأتـه منهمكـاً فـي الكتابـة، وضـعت القصاصــة التــي كتبـت عليهـا مسـتلزمات البيـت بجانبـه ليرسلها غداً مع السائق. مع استدارة الزوجة للخروج طلب إليهـا أن تحضـر فنجـان قهـوة تعينـه علـى التركيـز، وأجّـل تدخين سيجارة جديدة حتى يأخذها مع القهوة فتكون أكثر فاعلية. بخروج زوجته امتدت يده إلى قصاصة المستلزمات وبدأ يتأملها منتظراً إحضار فنجان القهوة.

علبة بن برازيلي . كيس ملح فرنسي . كيس رز أمريكي . كرتونة دخان كينت.

أعاد القصاصة إلى موقعها، وبعض لحظات خشي أن ينساها فوضعها في جهاز الفاكس لتكون جاهزة بانتظاره في مكتبه صباح الغد قبل أن يفتح المؤتمر، ثم ما لبث أن عاد إلـى استئناف كلمتـه ريثمـا تحضـر القهـوة وقـد قمـع رغبتـه الملحـة مرة أخرى لتدخين سيجارة: أيها الأخوة والأخوات، لـن تنجحـوا فـي التصـدي لهـذه الهجمـة إلا بالإصـرار علـى الاعتمـاد علـى الـذات وتحسـين الإنتـاج الـوطني وبـذل كـل الإمكانـات والكفـاءات فـي نشـر ثقافـة الاعتمـاد علـى محليـة السلع، من الجرابات وحتى مزيل الشعر. وعلينا أن نشجع السياحة الداخلية في مدننا بدل أن نصول ونجول في بلاد العجـم وننفـق أموالنـا هنـاك، يمكـن أن ننفـق أموالنـا فـي

منتوجاتنا ومدننا وناسنا. وإنه لدور وطني عظيم أدعوكم جميعاً للإسهام فيه، وكل حسب استطاعته، فإن رفضنا نحن إنتاجنا، كيف يتقبله الآخرون، علينا أن نكون قدوة في استهلاك هذا الإنتاج. دخلت زوجته حاملة فنجان القهوة. تذكر السيجارة عند استنشاق رائحة البن المغلي بشكل جيد، فوضع القلم وأشعل سيجارة، وبدأ يستلذ برشف الفنجان، عندئذ لفتت القداحة الجديدة نظر الزوجة فقالت: قداحة جديدة يا رمزي. قال وهو يتأملها: شركة نرويجية جديدة أرسلتها لي هدية مع مندوبها وتقترح اعتمادها في أسواقنا الخارجية.. إنها أجود قداحة استخدمتها في حياتي، فيها ميزات مدهشة لا يصدقها العقل، يا لتلك العبقرية التي صنعتها بكل هذه التقنية العالية، لكنها باهظة الثمن.

قالت: ماذا أحضر لك لترتديه غداً في افتتاح المؤتمر يا رمزي؟

قال: البدلة الكورية الجديدة التي أهداها لي مدير عام شركة الأقمشة الكورية، أتذكرين عندما زارنا مع زوجته؟

قالت: وكيف أنسى لوسي المدهشة التي أهدتني طقم سهرة وأظن أن تلك البدلة تليق على الحذاء الدانمركي الذي جلبته معك من الدانمارك في الشهر الفائت.

قال: والحزام السويدي الذي جلبه أخي عند زيارته السويد عندما أرسلناه على أنه مندوب شركتنا.

قالت: أظن ربطة العنق الألمانية التي ما تزال في علبتها تناسب كل هذا المظهر الخارجي العام لرجل يظهر على شاشات التلفاز.

قال: لا تنسي الجراب المكسيكي إنه يريح القدمين ويمتص الروائح الكريهة ويستبدلها بروائح عطرة.

وقبل أن تهم بالخروج قالت: لا تكتب كثيراً حتى لا ترهق عينيك.

قال قبل أن يعود للكتابة: قرأت منذ يومين في مجلة أميركية عن نظارات جديدة، أخذت عنوان الشركة واتصلت بطبيبي في نيويورك، قال بأنها تناسب عيني أكثر من النظارة الحالية، لكنني بعد انتهاء المؤتمر بأيام سأزور طبيبي في لندن لأنه قال لي عن كشف علاج جديد فعال لضعف النظر، ربما يغنيني عن ارتداء نظارة إلى الأبد.

قالت: أتذكر عندما أمضينا شهر عسلنا في لندن، كان شهراً رائعاً.

قال: يومها كنت تقترحين علي أن نمضي أياماً خالدة كهذه في إحدى مدننا!!

قالت ضاحكة: بصراحة يا رمزي كنت خائفة من ركوب طائرة، لكن من يذهب إلى لندن يبقى تواقاً إليها إلى أن يزورها مرة أخرى، هؤلاء كيف يبنون مدنهم بهذه الأناقة، لكنني مطمئنة لأن ابننا داني حصل على الجنسية بعد أن أنجبته في ذاك المشفى الذي كان مثل فندق خمس نجوم.

قال: أما ولي العهد الجديد فسنجعله يحصل على الجنسية الأمريكية، سيفتح عينيه في مشفى برعاية صديقنا /أرنست/، علينا أن نؤمن مستقبل الأولاد. خرجت زوجته وهي تلمس بطنها فعاد يكمل كلمته وقد أشعل سيجارة جديدة: أجل أيها الأخوة والأخوات علينا أن نتحدى كل مغريات وعوامل العولمة ونثبت بأننا نستطيع أن نعيش بالاعتماد على نتاجنا الوطني ونقاطع كل أشكال العولمة من الخارج والداخل، فويل لأمة تأكل مما لا تنتج، وتنتج ما لا تأكل، كما يقول أحد كتابنا الذين أمضوا حياتهم في الغرب. إن ثرواتنا كلها تذهب إلى جيوب أصحاب المعامل والمصانع الكبرى في الغرب.

نستهلك من البيبسي كولا إلى معجون الأسنان. ومنا من لا تعجبه بلاده فيذهب به الأمر إلى إمضاء حتى شهر عسله في بلاد الإفرنج، بل وبعضنا يودع حتى أمواله في بنوكهم فيحرم بلاده استثمارها وشعبه الإفادة منها. إن

بعضنا أيها الأخوة والأخوات . وأقولها بكل أسف .: قد اتخذ من بلاده مكاناً للإقامة فقط فهو يأكل من الغرب، ويتداوى في الغرب، وحتى أثاث بيته يأتيه من نتاج الغرب، فرجل يأكل رزاً أمريكياً، ويشرب قهوة برازيلية، وشاياً فرنسياً، ويرتدي ثياباً يابانية، ويدخن دخاناً مستورداً، كيف له ألا يميل بتفكيره إلى الإفرنج، وكيف له ألا ينسلخ عن بني قومه، وكل ما فيه إفرنج في إفرنج، حتى الدم الذي يسري في عروقه، هذا الدم الذي تشكل منذ الحليب الإفرنجي الذي رضعه من رضاعة إفرنجية على سرير إفرنجي. بهذه الطريقة يخطط الغرب لغزونا أيها الأخوة والأخوات تحت ستار العولمة، أليس رزنا أطيب من الرز الأمريكي الذي لا نعرف كيف أنتج لنا، على الأقل إن رزنا يحمل رائحة تربة أراضينا، أليست ثيابنا أجود من ثياب الإفرنج على الأقل ثيابنا هي من نتاج زنود عمالنا، أليس شرابنا ألذ من شرابهم، على الأقل إن شرابنا يحمل رائحة سواعد فلاحينا.

رن جرس هاتفه الخلوي، رفع السماعة، جاء صوت أخته التي تدرس الطب في باريس، عندها ولجت زوجته وبركت تصغي لصوتها من جهاز /الأنترفون/. قالت أخته بأنها حجزت موقعاً على الانترنيت لابنه البالغ من العمر سبع سنوات، وطلبت صورة جديدة له وبعض المعلومات،

إضـافة إلـى هواياتـه الأثيـرة لديـه، وقالـت: اعتبـاراً مـن أول الشهر القادم يمكن أن يتلقى دروساً من مدرسين مختصين لتعليم اللغة الفرنسية مباشرة على الانترنيت. ثم قالت بأنها غداً سترسل إلى زوجته مع الطائرة زجاجة عطر فرنسي، هو حديث نساء فرنسا الأنيقات هذا الفصل، وألمحت إليه أن يحول بعض الدولارات من رصيده في سويسرا إلى رقم حسابها في فرنسا عبر شبكة الانترنيت، وقبل أن تغلق الخط، قالت زوجته: يا حبيبتي لا تنسي أن ترسلي لنا غداً مع العطر وجبة عشاء فرنسية على ذوقك.

خرجت الزوجة فعاد إلى كلمته: فعلينا أن ننظر إلى هذه المسألة بمزيد من جدية أيها الأخوة والأخوات، غداً عندما ندمن على استهلاك الغرب، فإنه سيتحكم بإدمان أذواقنا عليه ويطفئ علينا حتى الكهرباء، لنلبث في عتمة نبحث عن بصيص ضوء فلا نجده.

التهبت القاعة بتصفيق كأنه موج لا ينقطع، وتعالت أصوات متناثرة من جموع المؤتمرين تردد أبياتاً شعرية تمجد الحس الوطني، وتندد بمؤامرات العدو من الداخل والخارج بينما أجهزة التصوير الضخمة راحت تسلط أشعتها عليه لالتقاط صور أكثر وضوحاً وبثها مباشرة على التلفاز، ثم ما لبث أن نهض الجميع من مقاعدهم وهم يصفقون

وأصـواتهم تـردد شـعارات وطنيـة سـاخنة. عنـد ذلـك راوده شـعور بضـرورة الانحنـاء أمـام تصـفيق الحشـد، لكنـه وبعـد لحظـات مـن التأمـل أنكـر الفكـرة ورأى بأنهـا لا تليـق بمركـزه بـين مـدراء فروعـه فـراح يلـوح يديـه وهـو ينظـر إلـى مخـرج يبعده عن هذا الضجيج.

ﮧﮧ

نبرات الأصابع

ببلوغ عقارب الساعة العاشرة صبحاً، تحركت سيارة المدير أنيقة كفراشة تدنو من وردة في ربيع، تتمهل بمحاذاة باب دائرته، ثم بمزيد من تمهل تستقر واقفة قبالة المدخل الذي بدا فاغراً فاه لاستقباله الصباحي. انفرج البابان الأماميان بعجالة ثم ما لبث أحدهما أن لفظ قامة السائق الذي كان خلف المقود، ولفظ الثاني قامة ضخمة الجثة على هيأة رجال الإنقاذ في عمليات الطوارئ الكبرى. تلمس الكائن البشري الضخم شيئاً على مؤخرته ماداً يده الأخرى إلى باب مملكة معلمه الصغيرة المتنقلة، فبدا المشهد أمام الناظرين . الذين كانوا يتشمسون بجانب الحائط الخارجي للدائرة بانتظار وصوله . بأن ملاكاً ما سينحدر من مركبة سحرية بعد هنيهات معدودة، واستجابة لهذا الإحساس المباغت الذي انتابهم انتفضوا رهبة لهذا الحدث الجلل،

البعض أطفأ سيجارة كان قد أشعلها للتو، والبعض قطع حديثاً ساخناً كان يسرده وقد تسمرت بهم الأنظار دهشة في باب السيارة المشرع تارة، وأخرى في حركات أشخاص أحاطوا أجسادهم بها وهم يمهدون لنزوله المبارك.

مرت دقائق على هذا الاحتفاء في الانتظار، وكما يطلع صوص من بيضته، كان النزول المبارك الذي سرب لحظات طائرة من الإنعاش إلى جوانح المنتظرين أنستهم ضجر الانتظار منذ الثامنة صباحاً. استوت على الأرض قامة غارقة في لمسات أناقتها كأنها كتلة من ضوء، كل ما يزينها يُرتَّدى لأول مرة، وأمام هذا الضوء الذي أخذ يشع منها راح كل مراجع يلطم قفاه فينفض مساحة التراب العالقة جراء جلوسه على قارعة الرصيف الخارجي للمبنى المهيب، ثم انطلق منهم هتاف على شكل كورس في شعارات و طنية وتنديد بالأيدي التي تسعى للنيل من عزتهم.

عندما تناهت حشرجاتهم إليه التفت يرمقهم بنظرة مزدرية شبه مطولة أطارت من أوصالهم لحظات الإنعاش واستبدلتها بوجل، فراب فريق منهم بأن الانفعال الوطني جعلهم يتجاوزوا بعض الحدود، ورأى آخر أن المدير تحسست خياشيمه من حجم الغبار الذي أنفضوه من مؤخراتهم، وكان عليهم أن يؤجلوا النفضة لحين ولوجه،

وظن آخر بأن الأصوات المتحشرجة كنشاز سببت إزعاجاً وحساسية لغشاء الطبل في مسمعه.

لكنهم بعد هنيهات تنفسوا الصعداء عندما رأوه يستدير ويمد خطاً نحو درج المبنى صوب مكتبه فعلموا بأنه سامحهم بقلبه الكبير الرحوم مهما كانت خطيئتهم غير المقصودة وراحوا يقفون فرحين على دور في طابور بانتظار مناداتهم لتوقيع المعاملات التي يتأبطونها.

عند دنو خطواته الواثقة من عتبة المكتبة وسط حشد أنظار ترمقه برهبة من كل ركن، كانت ثمة ثلاث سكرتيرات ينتصبن كثلاث وردات موسمية في كامل الهيأة لاستقباله وتقديم تحية الصباح لحضرته بمحاذاة مدخل المكتب الذي أخذ شكل متحف.

بغتة ابتلعه باب المكتب فراودت الموظفين طمأنينة بالحرية إلى نهاية الدوام، وراحوا يشعلون السجائر ويصبّون كاسات شاي من جديد، ويطلقون قهقهات لا متناهية في مكاتبهم المغلقة. بعد نصف ساعة من مكوثه واستراحته في دفء كرسيه، ولجت سكرتيرة بتؤدة حاملة إليه فنجان قهوة، ولما لمحته ناعساً في غفوة صباحية خفيفة، مدت خطاها لمجلسه وهتفت بنعومة مالئة حواسه نبرات أنثوية، قاوم نعاسه أمام إغراء نبراتها ورائحة القهوة الصباحية فأشعل

سيجارة بيد ومد الأخرى، لبثت اليد ممدودة إلى أن فرغ من تدخين سيجارته الصباحية، ثم مدها إلى فنجان القهوة فوجدها باردة وقد فقدت إثارة رغبته، عادت اليد خاوية، رفع نظره إلى وجهها الدائري الفتي، ثم ما لبثت أن تمتمت شفتاه: أريد فنجاناً ساخناً.

مضت دقائق أخرى غلبه فيها النعاس الصباحي دون أن يجسر على مقاومته فولجت على إثرها السكرتيرة الثانية حاملة إليه فنجان قهوة، ولما لمحته مستغرقاً في غفوته الملكية الثانية هتفت بنبرات رهيفة توقظه، فأشعل سيجارة بيد ومد الأخرى، لبثت في بحث لا ينتهي عن حمامتين إلى أن أنبهته السيجارة إلى رمادها، فعاد ومد يده إلى فنجان القهوة التي كانت باردة كأختها، فارتفعت عيناه إلى عينيها الفتيتين وتمتمت شفتاه: أريد قهوة ساخنة. أعادت القهوة باردة كأختها لتدخل السكرتيرة الثالثة بسخونة القهوة بعد نصف ساعة أخرى لتوقظه من غفوته الصباحية الملكية الثالثة وتقدم إليه شجناً وسحراً وبناً مغلياً بشكل جيد، فتمد أناملها الذهبية إلى علبة تبغه، تشعل سيجارتين، تناوله واحدة وتبرك جواره تشاركه الاحتساء من ذات الفنجان الصباحي الملكي الأول هذا الصباح وقد بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف.

تركته السكرتيرة بعد أن ارتوى قهوة ودخاناً وتمضية لوقت فراغ فصدح نغم هاتف، رفع سماعة، تناهى صوت زوجته أن يسرع بإرسال الفاكهة والسمك، امتد إصبعه، ضغط على زر أحمر صغير على المكتب فحضر السائق بعد لحظات. صرخ في وجهه موبخاً إياه على تأخر أخذ الفواكه والسمك إلى المدام، لكن السائق دافع عن نفسه بأنه لم يخبره بذلك. أمره أن يلحق الطلبات إلى المدام على جناح السرعة وألا يتأخر كعادته، فأعاد السائق ما أعاده عشرات المرات على مسمعه: لكنها المدام يا سيدي.. حرمكم المصون هي التي تصر على أن أمر بها إلى صديقتها /مدام جهينة/ لتشرب القهوة وأعيدها، وتقول بأن سائقها لا يصلح أن يقود حماراً.

يخرج السائق فتدلف سكرتيرة: سيدي، شخص يدعى عباس يريد الدخول.

. عباس، أي عباس جريء هذا.. هل قال بأنه عباس بن فرناس؟

ـ سيدي، قال بأنه عباس شاكر، زميل دراستك في المرحلة الابتدائية.

. ها ها ها، عباس ما غيره، دعيه يدخل.

قالت السكرتيرة قبل أن تستدير لتُدخل الرجل: أستاذ بكرة عطلة عيد الاستقلال، بابا عازمك على فنجان قهوة.

هز رأسه متمتماً: خير إن شاء الله خير، لبكرة الله كريم.

دخل عباس شاكر وهو يفتح ذراعيه كجناحين يحتضن زميل دراسته ضاحكاً: آه يا صديقي سلمون، ثلاثون سنة لم نلتق فيها، لكن تذكرت قول الأقدمين: الصديق عند الضيق، فلجأت إليك وأرجو ألا تخيبني، ضاقت السبل في وجهي فقلت لن يسعفني غير صديق دراستي سلمون، أتذكر يا سلمون كم كنت تحكي لي أسرارك؟ كم كنت تتحدث لي عن بخل والدك، واضطهاد زوجة أبيك لك عندما ماتت أمك؟ أتذكر كم تقاسمت معك خرجيتي؟ ومرة سرقت من حقيبتي قلم الرصاص والمسطرة، أتذكر عندما اعتدى عليك راضي في دورة المياه وكتم المدير الأمر كأن شيئاً لم يحدث؟

ضحك سلمون، وهو يقول بوجنتين حمراوين: أخفض صوتك يا ملعون، يكفي لا تكمل، ألا تنسى ذاكرتك شيئاً؟!

بادله عباس الضحك وأردف يقول: لقد ثخنت كثيراً يا سلمون.. كرشك يتسع لي ولأولادي لنحتمي فيه من البرد

لأننا لا نملك قيمة المازوت، هل تأكل يومياً اللحم والفواكه يا سلمون، ألا ينقطع المازوت من بيتك في الشتاء..

لكن كيف صرت في هذا المكان.. أتعرف يا سلمون كنت دائماً أقول بأنك لن تصلح غير أن ترعى البقر.

فقهقه سلمون بصوت غريب وهو يقول بنبرة خفيفة، اصمت يا رجل لا تفضحنا، دع الطابق مستوراً، وهل أنا غير ذلك، لكن ما الذي ذكرك بي يا ملعون، سأخدمك هذه المرة لأنك تدخل مكتبي لأول مرة، لكن إياك أن تتجرأ وتفكر بالعودة إلى هذا المكان مرة ثانية، أو اسمع بأنك أشهرت بي وحكيت ما قلته الآن للناس، عندها سأجعلك تلعن اليوم الذي درست فيه معي على مقعد واحد.

نهض عباس منتصباً على قدميه وقد علاه وجل: يا سيدي هي أول وآخر مرة، القصة أن ابنة أختي تخرجت وتريد أن تدرس في المدرسة المجاورة لبيتها، لكنهم قالوا بأنها لا بد أن تدرس ثلاث سنوات في قرية، وهي لا تريد ذلك.

مد سلمون يده إلى سماعة هاتف وبعد بعض الحديث أعاد السماعة إلى موضعها قائلاً: ابنة أختك في المدرسة التي تريدها، لتداوم فيها اعتباراً من أول الشهر القادم.

مـد عبـاس يـد الشـكر إليـه وقـد أحنـى رأسـه تقـديراً للمساعدة التي قدمها إليه، وخرج وهو يحني قامته مشيراً لـه بالامتنـان بينمـا سـلمون يـردد وقـد وقـف خلـف مكتبـه: لا بأس.. لا بأس يا عباس.

لم تمض لحظات حتى تفاجأ بصوت يبقظه من تأمل إلـى سـنوات الطفولـة وذكرياتـه مـع عبـاس: يـا رجـل إن لـم أزرك، ألا تفكر أن تشرب فنجان قهوة في مكتبي؟

قـال سـلمون: هل أعجبتك سـهرة البارحـة.. ثـم ضـغط على زر وطلب فنجاني قهوة.. وأردف: يا رجل ليس لنا إلا هذه السهرات، لولاها لما طقت العيش يوماً واحداً هنا.

قال الرجل: فقت العاشرة، ولم أصل الدائرة قبل الحادية عشـر وعنـدما رأيـت أفـواج المـراجعين، شـربت القهـوة ولـذت بك.

قال سلمون: وكم مرة بردت قهوتك حتى شربتها؟

انفجـر الـرجلان بقهقهـات متداخلـة دخلـت علـى إثرهـا سكرتيرة حاملة فنجاني القهوة فقال الرجل وهو يمد يده إلـى فنجان وموجهاً كلامه إليها، كم مرة بردت قهوة معلمك اليوم حتى شربها؟

فافتر ثغر السكرتيرة عن بسمة طفيفة وخرجت متمتمة: هذه أسرار المكتب يا سيدي.

هي لحظات معدودة من حديث وقهوة وتدخين حتى دلفت سكرتيرة على وجهها سمات اضطراب وقد علمت أنها ولجت في وقت غير مناسب، لكنها بررت ذلك وقالت كأنها تقذف الكلمات قذفاً .: آسفة أستاذ، لكن السائق حضر ويريد الدخول لأمر طارئ مع أنني أعلمته بوجود ضيف عندكم.

عاد يستأنف حديثه مع ضيفه ويعب نفساً من الدخان وقد أومأ لها بالخروج دون أن ينظر صوبها، فخرجت خروج جارية.

جرع الضيف آخر ما تبقى من قعر الفنجان، وأطفأ سيجارته التي كانت في منتصف إشعالها في صحن الفنجان ونهض مستأذناً: لا تنس يا سلمون الليلة السهرة في بيتي.

اصطحب ضيفه إلى الباب، وفي أثناء استدارته لمجلسه وقع عليه السائق كأنه ارتمى من مبنى وصوته يخرج بالكاد مذعوراً: أستاذ والله كنت على عجلة وأنا عائد من طلبات المدام فاصطدمت السيارة بجذع الشجرة.. الواجهة الأمامية كلها شوهت أستاذ.

رمى عليه بسمة مطمئنة وقد قعد على كرسيه: يا رجل أفسدت علينا جلستنا لأمر تافه كهذا. وراح يهز رأسه قائلاً: بسيطة.. بسيطة.. سلامتك.. اكتب مهمة عمل في ساعة الحادث لأوقعها لك وخذ السيارة للتصليح، ومن هناك اذهب للسائق الثالث، استلم سيارته لأنني أرتاح لسواقتك، وأعمل حسابك لتذهب مع الشباب هذين اليومين حتى تستلموا السيارات الجديدة التي أخبرتنا بها الجماعة.

عندها استرد السائق أنفاسه وقال لمعلمه مبتسماً: أستاذ هل الجماعة تشتري كل هذه السيارات؟

أجابه: يا أهبل هذه هدايا تتلقاها الجماعة باستمرار من الشركات المصنعة ومن ذوي المصالح لتيسر لها أمورها، وعندما يضيق المكان يقذفونها إلينا. الليلة يا بطل ستكون السهرة في مزرعة سيفو الذي أزعجته منذ قليل، أكتب مهمة، أنت تعرف بأنني عندما أثقل بالشرب أخاف من قيادة السيارة في الليل. الآن خذ سيارتك المعطلة للتصليح، واستلم السيارة من السائق الثالث ومن هناك مر بطريقك إلى المدرسة، أعد الأولاد للبيت.. هل أخذت المدام إلى جهينة وشربت القهوة.

ـ انتظرتها حتى شربت وأعدتها للبيت، ثم طلبت مني طلبات أخرى من السوق.

. ألم نخصص سيارة خاصة بمشاويرها؟

. يا سيدي سائقها ذهب ليجلب الخادمة الجديدة، ومن هناك سيذهب لتسديد فاتورة الكهرباء، وبعد ذلك سيكون عند أخت المدام ليأخذها مع عائلتها إلى القرية، وأظنه لن ينتهي قبل المغرب، والله يا أستاذ لو خصصت سيارة ثانية للمدام مع سائق ستكون أرحتها.

. الله كريم.. الله كريم.. عندما تأتي السيارات الجديدة.

جاء رنين الهاتف فرفع السماعة، أصغى قليلاً.. ثم قال: والله آسف، الليلة أنا محجوز عند سيفو، لكن أعدك في الغد.

أعاد السماعة إلى موضعها وطب كأساً من الشاي، قبل دخول السكرتيرة بكأس الشاي راودته حاجة لدخول دورة المياه عندئذ راودته ذات الفكرة بكيفية إحداث مرحاض خاص به فهو مثله مثل أي موظف أو مراجع يدخل ذات المرحاض الذي يكون في بعض الأحيان مسدوداً، أو مشغولاً، فيضطر للانتظار، إنه بنفسه ينتظر دوره من موظف أو مراجع، أو يضطر للحجر مسبقاً بواسطة إحدى السكرتيرات التي تمنع الدخول ما دام يقعد داخل الدورة، وهذا يسبب حرجاً له أمام السكرتيرات وكذلك أمام الموظفين والمراجعين، ثم يعكس انطباعاً عاماً بأنه شخص عادي لا

يختلف عن الآخرين بميزة، فهو كمثلهم يقضي حاجته في ذات الموضع، والأخطر من في هذا أنه مثلهم تراوده حاجة: هذا لا يليق بك يا سلمون، عليك أن توجد حلاً ونهاية لهذه المهزلة التي تنال من كرامتك وهيبتك أمام موظفيك، ومراجعيك، وأمام نفسك.

وراح يفكر بإحداث باب آخر غير الباب العام الذي يدخل منه عموم الناس، إنه رجل استثنائي به /خصاصة/ عليه أن يقدرها ويحافظ عليها، إذ لا يجوز لكل من هب ودب أن يراه وقت ما يشاء، عليه أن يكون في معزل عن أنظار الآخرين حتى يبقوا في توق دائم لرؤيته ولو من بعيد. أخذته السكرتيرة من ذروة شروده عندما دخلت وقالت بأن أحد المراجعين تقدم بطلب خاص للمثول أمام شخصه ليتمكن من شرح وضعه الطارئ الخاص. فنهض صارخاً في وجهها، إذ كيف تسمح لشخص من المراجعين أن يدخل مكتبها دون موافقته، ولكن السكرتيرة قالت بأنه مصر على المثول أمام أيديكم الكريمة، عند ذاك قال بأنه سمح للرجل أن يمثل أمام النائب الأول.

فقالت: والموظف عقيل معه التقرير الشهري يريد الدخول. أومأ إليها لتدخله، وقف عقيل قبالة مديره وقال: هل أنت جاهز يا سيدي لأقرأ عليك التقرير الذي أخذ مني

شهراً كاملاً من العمل والمراقبة والكتابة ليلاً نهاراً بما في ذلك أيام العطل الرسمية.

قال وقد مد يده إلى علبة دخانه: هات اسمعنا ما يحدث في دائرتنا، لكن والله لو كررت علي ما تكتبه كل شهر لن تدخل هذا المكان مرة أخرى.

قال: كلمة واحدة لن تسمعها من قبل، إنها أخبار طازجة. قال: فلنسمع ما حدث خلال هذا الشهر في دائرتنا.

ـ: لتعلم يا سيدي أن الموظفة بدرية من مكتب الأرشيف لم يعد يُسكت على تصرفاتها، أنت تعلم بأنها بدأت تجفف البامية في الدائرة وسكتنا عليها، ثم بدأت تجلب معها الثوم والكوسا فتجهز طبخة المحشي في مكتبها وسكتنا، ثم بدأت تمضي ساعة كاملة كل يوم وهي ترضع مولود الموظفة جازية، فقلنا أنه أمر طارئ وسكتنا، وبعدها أتت بعادة صناعة القبعات والكفيات والمحارم الشتوية وكشفنا بأنها تبيع هذه البضاعة للدكاكين...

قال المدير وقد وقف على قدميه: يا بن الحرام كل هذا أعرفه.. أين الجديد؟

قال الموظف: مهلك يا سيدي، وطوى صفحتين كان يريد قراءتهما، ثم قال: هذا هو الجديد، إنها خلال هذا الشهر أحالت مكتب الأرشيف إلى مطبخ.

في البداية شممت رائحة المحشي، ودنوت من مكتبها فكان مغلقاً، طرقت الباب، ولم تفتح لي، لكنني ما فقدت الأمل بقيت أنتظر حتى فتحت الباب ودخلت بسرعة فرأيت الطنجرة على ببور غاز صغير.

أما الموظفة سهيلة يبدو بأنها تريد أن تتثقف يا سيدي، كانت تغلق الباب على نفسها وتنام وتلصق ورقة على الباب من الخارج: سأعود بعد قليل. في هذا الشهر تعلمت عادة حل الكلمات المتقاطعة وصارت مدمنة عليها حتى أنها تكلف زوجها ليدور على المطاعم فيأخذ صفحات الكلمات المتقاطعة، ويوصي معارفه بهذه الصفحات.

أما أمين سرك مهران أفندي، لتعلم يا سيدي أنه على خصام مع الموظفة /أميمة/ في قسم التدقيق لأنه قال لها أمام حشد من الموظفين والموظفات وكانوا يشربون الشاي ويدخنون: لو كنت مسؤولاً مهماً في هذا العالم لأمرت أن يُحسب تصويت امرأتين في الانتخابات بصوت واحد أسوة بشهادة امرأتين عن شهادة رجل.

أشار المدير له إشارة من كفه بالانصراف كما لو كان يطرد حيواناً، فاستدار خارجاً وهو يشعر بالانتصار كمن قام بفعل بطولي.

لم تمض لحظات على خروجه حتى دخلت السكرتيرة الثانية مادة إليه مظروفاً وهي تقول: سيدي، المحاسب أتى براتبك مع الحوافز وساعات العمل الإضافية والمهمات الخارجية. وقبل أن تنسحب أنبهته بأن الساعة بلغت الثانية بعد الظهر. أشار بكفه لتخرج وهو يفض المظروف ليسحب الأوراق النقدية ويدسها في جيبه، أخذته هنيهات من التأمل ثم ما لبث أن تمتم لنفسه: أنت في حلم يا سلمون، عليك أن تحافظ على كل دواعي اللااستيقاظ، عليك أن تبقى نائماً لتنعم بدفء حلمك، وأي إشارة لليقظة هي إشارة أولى للخروج من هذا الحلم. مد إصبعه إلى زر، فوقف السائق أمامه، طلب إليه أن يجهز السيارة ليأخذه إلى البيت، رفع سماعة الهاتف، تحدث قليلاً ثم خرج، كل القامات الواقفة تسمرت مكانها، الرؤوس انحنت وهو يمضي ويهبط الدرج.

فتح له السائق باب السيارة وصعد المرافق من الأمام، تأمل قليلاً في وجوه الناس الذين ينظرون إليه وكأنه ملاك هبط للتو من السماء، في تلك اللحظات استبدت به حالة شديدة لقضاء حاجة، فاستدار عائداً إلى الدائرة وتوجه على

الفور بخطوات راكضة صوب دورة المياه، استغرقت حاجته ربع ساعة، ثم عاد إلى حيث السيارة والناس ما زالوا ينظرون إليه بدهشة وكأنه من كوكب آخر. جلس في المقعد الخلفي وتحركت السيارة متجهة صوب البيت. أراد أن يتأكد من السائق إن كان قد أخذ فجلاً إلى البيت لأنه يحب الفجل على الغذاء رغم أنه يملأ أمعاءه غازات ويزعجه بروائح كريهة، فأحس بأن صوته يأبى الخروج، تأحأح، أطلق ما لديه من عبارات أراد قولها، لكنها خرجت بدون صوت، أدرك إذ ذاك بأنه فقد صوته، فلم يجد وسيلة من إلفات نظر السائق والمرافق إلا أن استعان يكفيه للتصفيق، تفاجأ الرجلان وهما يسمعان صفيق مديرهما، فعلما أنه فقد صوته ولم يعد يملك من وسيلة للفت الانتباه إليه سوى التصفيق.

ꙮꙮ

ربيع بلا ورود

صحيح أن سكان هذه المدينة النائية لا يعتمدون على العسل كوجبة يومية في غذائهم لسبب أوضاعهم المالية المتدنية، لكن هذا لا يعني أنهم لا يستخدموه البتة، سواء كان ذلك نوعاً من العلاج، أو في شهر رمضان، أو عندما يحل مبلغ موسمي جيد دفعة واحدة على بعضهم فيستغل الفرصة ويبتاع شيئاً منه قبل نفاذ المبلغ في المتطلبات الرئيسية التي لا تنتهي، وحينذاك يمكن أن تسمع رب أسرة يتمتم لأولاده وهو يشاركهم تناول العسل الذي يبدو وكأنه قدم من كوكب آخر: لنذق العسل ولو مرة واحدة في السنة، وكم سنة سأمضيها بينكم حتى نأكل فيها عسلاً.

رغم ذلك فإن الكلام بدأ يتسع بقوة حول ما يقول البعض بأن ثمة رائحة كريهة بدأت تظهر منه، وأن طعمه اختلف تماماً عن المألوف.

اعتقد هذا البعض في البدء أن الأمر يعود إلى غش يقوم به بعض تجار العسل الذين يجلبونه من المربين في القرى ويعتمدون في بيعه بالدرجة الأولى على بعض الأثرياء وأصحاب النفوذ والوجهاء الذين يعيشون في الدرجة المعيشية الممتازة.

بيد أن هذا الاعتقاد تزحزح عندما ذهب هؤلاء التجار أنفسهم إلى بعض مربي النحل الموثوق بهم في قرى مجاورة، فشكا المربون ذات الشكوى للسائلين وهم يرددون العبارة ذاتها وكأنهم اتفقوا عليها مسبقاً: أجل بدأنا نلاحظ هذا التغيير المفاجئ على عسلنا حتى وهو في شهده، يا جماعة لم نعد نحتمل الرائحة الكريهة التي بدأت تقتحم علينا بيوتنا خاصة في الليل عندما تهب نسمة هواء ونستيقظ على رائحة كريهة كأنها تسد أنفاسنا.

عندئذ انهالت الشكاوى إلى مديرية التموين من مختلف شرائح الناس للنظر في هذا الأمر الغامض. ومن طرف آخر تجمهر مربو النحل من بعض القرى والمناطق أمام باب مديرية التموين طالبين التدخل الفوري لإجراء كشف حسّي على النحل الذي هو مصدر رزقهم الوحيد وإيجاد أدوية شافية له إن كان به داء.

استقبلهم مدير التموين وهو لم يخف بأنه منذ أكثر من شهر حُرم الاستمتاع بتناول ملعقة عسل في الصباح بسبب هذه الرائحة الكريهة التي تفوح منه، وأنه في الأيام الأولى لاكتشاف الرائحة كان يتناول ملعقة صغيرة وهو يسد أنفاسه ويغمض عينيه، بيد أنه ينسى طرح الموضوع في مجلس المدينة بسبب الأشغال المتراكمة عليه، ووعد المربين أنه سوف يتدخل في الأمر لبيان السبب ومعالجته.

قبل أن يخرج هؤلاء بلحظات ولج مدير الصحة قائلاً بأن مديريته تتلقى يومياً أكثر من شكوى واتصال بسبب الرائحة الكريهة هذه، فقال له مدير التموين أمام المربين بأن عليه أن يشكل لجنة صحية حالاً لإجراء الكشف على النحل والعسل معاً.

لحظتذاك آب المربون إلى بيوتهم مطمئنين لتلحقهم بعد ثلاثة أيام لجنة من خيرة خبراء الصحة والتموين بحضور مديري التموين والصحة لإجراء كشف مباشر على خلايا النحل وتحليل هذا العسل من عدة خلايا. أمضت اللجنة نحو عشر ساعات متواصلة من العمل، أخذ خلالها الخبراء كافة العينات اللازمة وطلبوا مهلة حتى يُجروا تحليلات متأنية عليها في مخابر مختصة، وإن استدعى الأمر يستعينون بمخابر حديثة في العاصمة.

استغرق عمل الخبراء شهراً كاملاً وقيل أنهم استعانوا بأطباء بيطريين للكشف عن مجموعات من النحل، وانتهت اللجنة إلى أن كتبت في تقريرها بأن النحل هو ذات النحل المحلي المألوف، لكن العسل يحتوي على عناصر غريبة يجهلون مصدرها، وأوصت بأفضلية عدم استخدام هذا العسل لأنه يخلو من عناصر العسل الطبيعي، وهو بالتالي فاقد لعناصر التغذية الطبيعية، كما أنه يؤذي الصحة من الناحية الطبية، وربما يسبب العمش، أو الطرش، أو حصر البول عندما يُستخدم بكثرة.

أذيعت هذه المعلومات في الناس بصورة عامة، وفي آكلي العسل بصورة خاصة كالريح، فامتنعوا الاقتراب من رائحته مما أدى إلى توقيف المربين توقيفاً نهائياً عن بيع غرام واحد من العسل خلال شهريين متتاليين، حتى أن البعض رأى بأنه سوف يحرق النحل والخلية معاً ما دام يشكل على كاهله عبئاً مادياً ومعنوياً، أما عندما يُسأل أحد أصحاب النحل عن أحوال نحله فلا يتردد من قذف الجملة الشعبية الدارجة: /خير ما منه.. دخانه عمانا/ حيث أن بعض أولاد مربي النحل قد نُقلوا إلى المشافي بسبب الرائحة الكريهة التي تفوح من الخلايا وهي روائح شبيهة بروائح سمك فاسد مسلطة على بيوتهم ليلاً نهاراً. ومرة أخرى اجتمع هؤلاء وعادوا إلى مدير التموين يسألونه حلاً. لم

يتردد من مواجهتهم بالواقع قائلاً بأن كل جهود اللجنة فشلت في إيجاد حل لهذه المشكلة، وعند ذاك رفع سماعة الهاتف متصلاً بمدير الصحة علّه توصل إلى شيء جديد ليرد به على هؤلاء.

فقال له مدير الصحة بنبرة مرتبكة بأنه كان على وشك الحضور إليه لأنه أجرى اتصالاً للتو مع المديرية العامة للصحة طارحاً المشكلة، ثم بنبرة منخفضة أردف: لكنهم وبخوني بقولهم: ألا تقرأ الصحف المحلية، ألم نخصص لمديريتك اشتراكاً في هذه الصحف يا حضرة المدير، المسألة ليست مقتصرة على مدينتك وحدها، إنها عامة في كل المدن.

عند ذاك تغيّر لون مدير التموين وهو ينظر من خلف نظارته إلى المربين وقد أحس أن التوبيخ ذاته موجه إليه كونه لم يطّلع على الصحف خلال الأسبوع الفائت الذي بدأت فيه بعض الصحف بطرح الموضوع في زوايا الرد على شكاوى المواطنين.

أردف مدير الصحة: يا سيدي، بعد هذا التوبيخ أخبروني بأن جميع خبراء المديرية العامة للصحة عجزوا عن إيجاد هذا السبب الغريب الذي طرأ على العسل.

ـ شكراً يا حكيم. قالها مدير التموين وأغلق السماعة قائلاً للمربين بأن يعودوا إلى بيوتهم لأن المشكلة عامة وغير مقتصرة على مدينتهم.

في هذه الأثناء كان قد اختفى رجل مجنون. من أبناء المدينة مع زوجته وأولاده السبعة لمدة شهر، وعاد إلى الظهور فجأة ليخبر الناس بأنهم كانوا في مهمة للبحث عن سبب الرائحة التي غدت تفوح من العسل والتي أصبحت حديث الساعة، وقال بأنه وضع يده على بيت الداء.

قال البعض مستهزئاً: كلام مجانين.

وقال بعض آخر: خذ الحكمة من أفواه المجانين.

وبين هذا وذاك وصل الخبر لمدير التموين الذي لم يتردد من دعوة الرجل لمقابلته، بيد أن الرجل رفض قائلاً: أنا لا مطلب لي عنده، إذ كان له عندي مطلب فليأت إلى بيتي.

عندما قيل ذلك لمدير التموين ركب سيارة أخرى غير سيارته المعروفة بدون أن يصطحب السائق واتجه مع دليل إلى بيت المذكور، فلم يجداه في البيت.

وعلموا من زوجته بأنه موجود في أحد شوارع سوق المدينة على الأغلب.

اضطر مدير التموين أن يجوب سوق المدينة شارعاً شارعاً بحثاً عن الرجل إلى أن وجده في سوق الهال يدفع عربة بيليا صغيرة عليها حوائج رجل ليوصلها إلى منزله.

أشار الدليل إليه وهو يقول كأنه وضع يده على كنز تائه: هذا هو المجنون يا سيدي.

فوقف مدير التموين في منتصف الطريق منادياً إياه. أطلق شرطي السير للسيارة الواقفة صفيراً ظاناً بأنها سيارة أحد الموظفين، بيد أن مدير التموين أشار للشرطي أن يمسك برقبة الرجل المجنون ويحضره إليه تاركاً السيارات واقفة خلفه لأن مدير التموين ذاته يقف بسيارته في مهمة تموينية طارئة. أوقف الشرطي عربة الرجل في منتصف الطريق وقاده إلى حيث السيارة، فقال باستياء وهو ينظر في عينَي الشرطي: أنا الآن في عملي ولقمة عيشي، إذا كانت له عندي حاجة فأنا موجود في البيت ليلاً.

رفع الشرطي كفه ليصفع الرجل بيد أن مدير التموين منعه من ذلك بإشارة من يده وقد التم كل مَنْ في السوق حول السيارة وتوقفت حركة السير حتى أن أحداً من السائقين لا يجسر أن يطلق زموراً وهو يعلم أن سيارة مدير التموين هي الواقفة في منتصف الطريق بسبب مهمة طارئة.

قال له بجملة موجزة: هل تعرف سبب ما أصاب العسل أم أنك تقول كلام مجانين؟

أجابه بثقة: أعرف ذلك حق المعرفة.

قال: قل الذي تعرفه؟

قال: قررت ألا أقول ذلك إلا في برنامج خاص على شاشة التلفزيون برفقة أولادي وزوجتي لأننا جميعاً شركاء في المعرفة التي أمضينا فيها شهراً كاملاً، عندما نظهر على شاشة التلفزيون سنخبر الناس جميعاً بالسر الذي عرفناه حتى لا ينسبه أحد إلى نفسه.

تركه مدير التموين وعاد إلى مكتبه، ليجري اتصالاً مع المحافظة يخبر فيه عن ادعاء هذا الرجل ومطلبه الغريب، رغم أنه ذهب إليه بنفسه، هذا الرجل الذي يرفض الإدلاء بمعلوماته تحت كل المغريات إلا إذا استُجيب لرغبته بالظهور على شاشة التلفاز.

فطُلبت معلومات كافية عن هذا الرجل ليُبث على ضوئها في الأمر.

بعد يومين وصلت معلومات تفيد بأنه ولد مجنونا، تزوج في سن العشرين امرأة معتوهة، فأنجب منها ثلاثة أولاد وأربع بنات تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والعشر سنوات دون أن يتزوج أحد منهم، وكلهم مجانين يعتمدون

فـي التقـاط رزقهـم مـن القيـام بأعمـال سـريعة داخـل سـوق المدينـة كـأن يلبـوا طلبـات أصـحاب المحـلات فـي إدخـال وإخـراج البضـاعة، أو جلـب حاجـاتهم، أو غسـل الـدكاكين والبيوت.

فوجّهـت المحافظـة إلـى مديريـة التلفـاز كتابـاً رسـمياً تطلب فيه تخصيص برنامج خاص لهؤلاء حتى يقولوا ما لديهم بهذا الشأن.

بعد عشرة أيام جاء رد بالإيجاب إلى المحافظة وبدأت بـرامج التلفـاز تنقطـع لـيُعلَن عـن برنـامج هـام فـي الأسـبوع القادم، البرنامج الذي سوف يلقي الضوء على السبب الذي طرأ على العسل وجعله يتفوّح بهذه الرائحة الكريهة.

إنهم مجموعة من المواطنين الذين جنّدوا أنفسهم حتى علموا الحقيقة، وسوف يجلسون إلى هذا البرنامج الخاص ليقولوا على الملأ في بث مباشر ما توصلوا إليه.

لم يكن أحد يعرف هؤلاء ولا من أي مدينـة سيقدمون، لكـن النـاس جميعـاً أصـبحوا فـي اسـتنفار بانتظـار البرنـامج المعلوم الذي سيعرفون فيه الحقيقة التي عجز عن معرفتها كل خبراء العسل في البلاد.

ذات مسـاء فوجئت الحـارة كلهـا التـي تُعـرف بــ /حـارة المجـانين/ بموكـب المحـافظ يحـط فـي حـارتهم، اسـتغربوا

الأمر، أجل إنها سيارة المحافظ، وهو الموكب المعروف بدراجات شرطة السير التي تتقدمه.

وكانت ثمة سيارة بيضاء كبيرة كُتب عليها: /تلفزيون/ ترافق الموكب في نهايته.

نزلوا جميعاً، تسمّر الناس في أماكنهم انتظاراً لما سيفعله المحافظ الذي ما لبث أن تقدم إليه مدير التموين ومدير الصحة ومندوب التلفزيون ليتجهوا وسط الحشد أمام كاميرا تصوير التلفزيون. دنا إليهم الدليل وهو يشير للزقاق المؤدي إلى البيت قائلاً بأنهم جميعاً يقطنون غرفة على سطح إحدى الدكاكين.

زادت دهشة الناس وهم يبحلقون عيونهم، يمطون شفاههم باستغراب، والموكب بالفعل يتجه إلى ذات البيت تلحقه من بعيد قامات بعض سكان الحي. لم يتمكن الجميع من دخول الغرفة بسبب ضيقها، فدخل المحافظ مع مديري الصحة والتموين ومندوب التلفاز والمصور يأخذ لقطات تاريخية من أجل إظهارها في البرنامج. أصر رب الأسرة أن يجلسوا ويشربوا الشاي حتى يجهزوا أنفسهم للخروج.

بعد نحو نصف ساعة خرجت القامات وكأنها كانت في علب كبريت وتجمهرت حول السيارات الواقفة برفقة هؤلاء جميعاً الذين غدوا يوصون الجوار ببيتهم.

ركبـوا السـيارة البيضـاء الكبيـرة التـي كُتـب عليهـا /تلفزيون/ ومضوا خلف موكب المحافظ تاركين الجوار في دهشة من أمرهم، وتسربت السيارات نحو طريق العاصمة.

في الصباح الباكر وصلوا الفندق الذي يقيمون فيه.

استراحوا قليلاً في غرفهم، ثم تناولوا الفطور، بعد قليل جاءهما رجـلان جُنِّدا لهـذه الغايـة وأخـذاهما إلـى السـوق، فدخلوا صالونات حلاقة، ثم إلى الحمامات، ثم إلى محلات بيـع الثيـاب الجـاهزة وعـادوا إلـى الفنـدق فـي الثانيـة ظهـرا لتنـاول وجبـة الغـذاء وأخـذ قسـط مـن الراحـة حتـى يكونـوا جاهزين لتصوير البرنامج الخاص بهم في السابعة والنصف مساء.

خلال هذه الفترة بدأ التلفاز يذكّر مشاهديه بين وهلة وأخرى بأنـه سوف يستضيف رجـالاً لـديهم معلومـات هامـة عن سبب الطارئ الذي طرأ على العسل.

بعد تناول وجبة الغذاء الدسمة برفقة المحافظ ومدير التمـوين ومـدير الصـحة، اتجـه كـل واحـد إلـى الغرفـة المخصصـة لـه، وعندها بدأت الأحاديث الهاتفية فيما بين الأخـوة والأبـوين عبـر الغـرف وبـدأت الزيـارات فيوشوشـون لبعضـهم إن كانوا في حلم أم في واقع، أي نعيم هذا الذي وقـع عليهم فجأة، بنـات كحوريات ينحنين لهم طالبـات أي

خدمة، رجال بدرجات علمية متقدمة يقدّمون لهم ما يريدون من طلبات بالضغط على زر صغير.

فيهتف لهم الأب: تمتعوا بهذا النعيم قبل أن تُطردوا منه، اعلموا يا أبنائي الأعزاء أننا سنُطرَد من هذا النعيم عندما نخبرهم بالسر الذي عرفناه، وعندها سوف يخلعون منا حتى هذه الثياب، ربما نعود سيراً على الأقدام إلى بيوتنا.. تمتعوا يا أبنائي بالنعيم، لا تتركوا حاجة في نفوسكم هذه الساعات القليلة المتبقية لكم في هذه الجنة الصغيرة التي لا ندخلها إلا مرة واحدة في العمر.

مضى الوقت سريعاً بهم حتى دنت عقارب الساعة إلى قرب الموعد، عندها جاءت سيارة التلفاز واصطحبتهم إلى المبنى.

قبل الساعة والنصف بدقائق قليلة توقفت الحركة في الشوارع، الجميع أمام التلفاز ينتظر ما يقوله هؤلاء الأشخاص من معلومات، حتى أولئك الذين ما ذاقوا طعم العسل، لكن من باب الفضول وحتى يشاركوا الناس في أمر أصبح حديث الساعة.

فور بلوغ الساعة السابعة والنصف ظهر مقدم البرنامج يقدم ضيوفه واحداً واحداً، ثم تحدث عن الطارئ الذي طرأ

على أحوال العسل في البلاد كلها، وقال بأن ذلك يلحق ضرراً بالغاً بالاقتصاد إن طال أمده.

أضاف وهو يلتفت لضيوفه مرحّباً بهم من جديد: لكن ضيوفي هؤلاء الذين قطعوا مسافات طويلة حتى وصلوا إلينا عزّ عليهم أن يبخلوا بمعلومات عرفوها بجهودهم الشخصية سوف تفيد الخبراء لمعالجة هذا الداء الغامض. عندئذ مال الأب إلى أذن المذيع وهمسه سائلاً عن موقع المرحاض لأنه متضايق، فحسم المذيع الأمر وهو يبتسم قائلاً للمشاهدين: أعزائي أرجو ألا تذهبوا بعيداً.. سنعود إليكم بعد هذا الفاصل.

دلف الرجل المرحاض، مضت دقائق خمس ولم يخرج، فراح المذيع بنفسه يطرق عليه الباب. أجابه من الداخل بأنه لم ينته بعد.

رفع المذيع من نبرات صوته: يا أخي أسرع، الناس ينتظرونك.

عاد الصوت مدوياً: ليس ذنبي، كانوا أسخياء في إطعامنا.

في هذه الأثناء بدأت الهواتف تنهال على التلفاز سائلة عن سبب انقطاع هذا البرنامج الذي لم يبدأ بعد.

طال مكوثه نصف ساعة وبين برهة وأخرى تصدر منه أصوات وفقاعات غريبة، تزاحم كل موظفي التلفاز حول باب المرحاض ينادون به ويخبطون على الباب المحكم دون أن يسمعوا من الداخل رداً غير الأصوات الغريبة والفقاعات التي تتعالى.

بغتة قال شخص معروف عنه بروح النكتة: حريق يا جماعة، حريق..

وأخذ يهرول، وهرول معه المتجمهرون علّ الرجل يرتعب ويلوذ بالخروج، بيد أن ذلك لم يجد نفعاً ولبث الباب مغلقاً، لكن تعالى صوت أجش من الرجل من خلف الباب وكأنه في عمق بئر: الحريق الذي بداخلي أكثر حرارة علي. عند ذاك اقتحم رجل ضخم الجثة من مستخدمي التلفاز الباب وجرجره من رقبته بالقوة قائلاً له بلهجة حادة: ألا تفهم بأن البلاد كلها تنتظر خروجك يا حمار.

عندما سمع الأولاد عبارة حمار لأبيهم وهم ينظرون إلى بنطاله نصف المخلوع، لم يترددوا من التهجم على الرجل الضخم، لتغدو فسحة التلفاز ساحة معركة صغيرة بين الموظفين وهؤلاء الضيوف.

تدخل رجال حتى أوقفوا المعركة وهدءوا من روع الجميع، فظهر المذيع بعد ساعة من الانقطاع ليعتذر من

المشاهدين ويعدهم بأن البرنامج تأجل إلى يوم الغد في نفس الموعد.

بعد لحظات انهالت الهواتف من كافة شرائح الناس على مبنى التلفاز سائلة عن سبب التأجيل، وتلقى المذيع أمراً شفوياً من مدير التلفاز بفصله من عمله جراء عدم احترامه لمشاعر الناس لأنه استهان بهم عندما قال بأنه سوف يعود بعد الفاصل، ودام ذلك ساعة ليخبرهم تأجيل البرنامج إلى الغد، وهل يعلم هذا المذيع كم خسر البلد جراء توقف الناس ساعتين عن أعمالهم، كم بلغ عدد الساعات، بل الأيام، بل السنوات إذا ما ضُرب ذلك بعدد سكان البلاد.

من الطرف الآخر تم التوجيه بإعادة هؤلاء إلى ذات الفندق وتكريمهم حتى يوم الغد ليظهروا على البرنامج المؤجل.

فعادوا إلى غرفهم وإلى ما كانوا فيه من ترف الطلبات وإحداث ضجيج في الفندق دون أن يناموا لحظة واحدة حتى أمسية اليوم التالي حيث حضر مذيع جديد برفقة المحافظ ومديري التموين والصحة كي يذهبوا إلى مبنى التلفاز لتصوير البرنامج لأن الناس تركوا أعمالهم لليوم التالي بانتظار ما يقولوه في هذا البرنامج.

صمت الأب وهو ينظر في الأرض، ثم بعد هنيهات رفع رأسه قائلاً بأنه تراجع عن موقفه ولا توجد قوة على الأرض تجعله يبوح بكلمة واحدة استنكاراً لما جرى بحقه وبحق أولاده من إهانة ليلة البارحة، لكن من أجل كرامة المحافظ فإنه سيقول ما يعرف له شخصياً عندما يعيدوه من أبنائه إلى بيتهم.

بعد محاولات يائسة أدركوا أن هؤلاء بالفعل لن يتفوهوا بكلمة واحدة إلا إذا عادوا إلى بيتهم، وهناك سوف يقولون كل ما يعرفوه من معلومات.

ورأوا أن يكونوا لينين حتى يحصلوا منهم على معلومات مفيدة، ولا بأس لو عادوا جميعاً إلى مدينتهم كما خرجوا منها.

بعد ثلاثة أيام من المحاولات استطاع مدير التموين أن يعرف المعلومات المرتقبة من الرجل المجنون، لحظتئذ اتجه على الفور إلى المحافظ وهو يخبره بما عرف؟!!

. معقول هذا الهراء يا حضرة مدير التموين؟!

. انتظرتُ يا سيدي بعد أن عرفت هذه المعلومات حتى شكلّت لجنة سريعة وتأكدنا من صحتها بالكشف المباشر وملاحقة النحل.

. يعني لم يعد النحل يحط على الورد، وبدل ذلك صار يحط على القمامة، والله أمر غريب.

. نعم سيدي أمر غريب، وأي عسل سيجنيه النحل من القمامة، لم يعد فرق بينه وبين الذباب، هذا أمر مؤسف، النحل الذي كان منظره يفرحنا وهو يطير كلؤلؤة من زهرة إلى زهرة، أصبحنا نحمله ونضعه على الزهرة، فيتركها ويطير ليحط على أقرب قمامة يراها. أكد لنا الخبراء يا سيدي ما توصل إليه المجنون عن سبب صدور الرائحة الكريهة من العسل.

مدّ المحافظ يده إلى جهاز الخليوي وأجرى اتصالاً مع البيت قائلاً وهو يسد أنفه ويكاد يتقيأ: ذاك العسل ارموه بسرعة.

قالت زوجته: هل أصبت بزكام.. صوتك متغير.

قال وقد أزاح إصبعيه عن أنفه: لا زكام ولا من يحزنون.. لا تتركوا ذاك العسل لحظة واحدة في البيت، اقذفوه حالاً في خارج البيت. ثم أعاد الجهاز إلى جيبه.

قال مدير التموين: ماذا توجهوننا سيدي؟

شرد قليلاً وأجاب: عد إلى مكتبك وسوف أخبر الوزارة بما توصلنا إليه. ولدى خروج مدير التموين قال المحافظ: أشكرك يا حضرة المدير على الخدمة التي قدمتها للبلد، لنا

الشرف أن مدينتنا هي التي سبقت كل المدن لاكتشاف الحقيقة وبيان اللغز الذي أربك البلاد.

ثم ما لبث أن رفع السماعة وأبلغ الوزارة بالمعلومات التي توصل إليها.

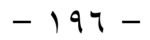
مضت سنة على ذلك دون أن يعثر أحد على حل رغم الاستعانة من قبل الوزارة بخبرات عديدة في مجال العسل، ولاحظ الناس أن الربيع هذه السنة أصبح أقل وروداً لأن النحل لم يعد يحط عليه، ولم يعد يستنشق رحيقه، باتت الورود القليلة الطالعة للتو تُظهر ذبولاً وكأنها في حداد حزناً على الورد المكتمل الذي لم يعد يجذب النحل إلى أن جاء الربيع القادم ولم يحمل معه وردة واحدة.

عند ذاك بدأ الناس يعودون إلى استخدام العسل، وشيئاً فشيئاً أخذوا عليه، وما عادت تزعجهم الروائح الكريهة التي اعتادوها كما اعتادوا مجيء الربيع دون أن يحمل وردة واحدة.

أما عندما يرون النحل وهو يحلق فوق القمامة ويتزاحم عليها فإن ذلك لم يعد يثير اشمئزازهم حتى أنهم نسوا أن هذا النحل كان وهو يطير يذكرهم بأنها كائنات أتت من الجنة لهذه المهمة، وهي لا تموت كسائر الكائنات، بل تعود إلى رياض الجنة لتقضي شهوراً، ثم تُبعث من جديد.

والربيع في السنوات الماضية كان يأتي محملاً بثراء ألوان الورود، والنحل كان يستنشق رحيقها ليقدم لهم عسلاً مطعماً برائحة وكأنها أتت للتو من حدائق الجنة.

ﮔﮔ



الفهرس